يوسف القعيد

البكاء المستحيل

قصص

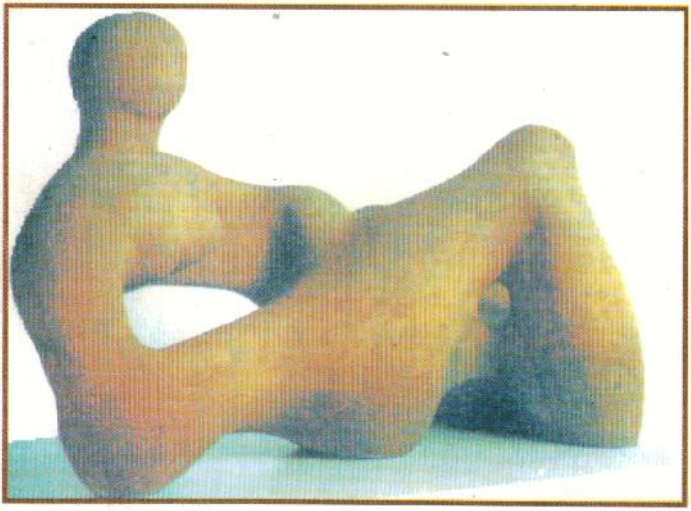

دار سحر

©

جميع الحقوق محفوظة

دار سحر للنشر

الطبعة الأولى - 1000 نسخة

رقن وتصفيف الكرمل للخدمات الجامعية والإدارية

40 نهج سيدي سفيان البساج - تونس

الهاتف : 252.108

hamdan
22/10/08

يوسف القعيد

البكاء المستحيل

قصص قصيرة

إلى سنوات القاهرة .. التي قهرتني قسوتها

فجعلتني أبحث عن البكاء المستحيل

بعد أن جفّت دموع العين...!

نهنهة

- كشف خصوصي
- إعلام وراثة
- مسجل وبعلم الوصول

كشف خصوصي

... ولم لا ؟! قلت لنفسي متسائلاً: ما الذي يمنعني من قبول عرضها؟! لو ذهبت معها لن أخشى شيئا. أكدت على نفسي من جديد: إن لم تكن هناك مكاسب فلن تكون ثمة خسارة. ثم هل أحاول أن أتناسى أن قضاء أمسية مع امرأة جميلة لا يمكن أن ينظر إليه من باب حسابات الربح والخسارة؟! علاوة على الجمال الذي يعلن عن نفسه بضجيج مسموع. فهي كاتبة مثلي. وقبل أن تكون كاتبة فهي طبيبة. وإن كانت تمارس عملها في بلد بعيد، وهي في زيارة عابرة لبلدي الذب هو بلد المنشأ والأهل بالنسبة لها.

كانت قد زارتني في مكتبي، زيارة تعارف. قامت به كاتبة صديقة للطرفين. ومن عادتي أن أقدم كتبي هدايا لمن يزورونني في مكتبي. أو من يترددون على منزلي. وذلك في أضيق الحدود الممكنة. وتقديم الكتب، في هذه الحالة، يكون بديلا للكروت المثقلة بالصفات والوظائف والأدوار التي نقوم بها في الحياة. بل إن بعض هذه الكروت ندوّن عليه الأكاذيب اليومية. والأحلام التي لم نتمكن من تحقيقها في بعض الأحيان.

وبعد أن أقدّم الكتب، أكتب إهداءات لمن يطلب ذلك فقط. والذين يطلبون الإهداء هم عادة كتّاب هواة. أو ربما كانوا كتابا محترفين. أما القارئ العادي فلا يتوقف أمام مثل هذه الأمور.

في اليوم التالي بـادرتني باتصـال تليفونـي. وبعد المرحبـات والسلامات والـذي منـه، دخلت في الموضوع فـوراً. قـالت لـي: إن الإهداء الذي كتبته على أحد الكتابين اللذين أهديتهما لهـا؛ يقول إننـي مريض.

والحق أنني فوجئت بأكثر من أمر، أولها؛ المبادرة بالاتصال التي اعتبرتها نوعاً من الاقتحام وسعدت به كثيراً فهو الاقتحام الجميل. ها هي امرأة بدرجة فاعل. لا تجلس منتظرة أن يتحرك الرجل تجاهها. توقفت وسألت نفسي: ألست مبالغاً؟! أليست تتعامل معي كطبيبـة؟ وأنـا خيالي يوشك أن يصوّر الأمر كما لو كان إعلان حب من طرف واحد.

الأمر الثاني، أنني لم أكن مريضاً. ولكنّني فقط كنت أمُر بحالة من الإحباط المؤلم. وهي حالة تروح وتجئ حسب الظروف العامة.

قلت لها: «مجرد اكتئاب بسيط».

قالت: لا أنا هنا أتكلم كمتخصصة. ثمة عبارة وردت في الإهـداء. دالة ومُعبّرة. وتشير إلى المرض الذي أعاني منـه. ويبدو أنـه - أي المرض - في أوله. وهذا يجعل العلاج سهلاً وممكنـاً. والشفاء، بإذن الله، في متناول اليد.

هي التي عرضت عليّ أن تراني، في مكان عام، وهـذا لم يحدث من قبل. دائماً وأبداً أنا الذي أطلب اللقاء وأسعى إليه، وألح من أجل أن يتم، وأحاول أن أتغلب على أي ظروف قد تحول دون حدوثه.

هذه المرة هي التي طلبت. وحددت الزمان. أمّا المكان، فقد كان عبارة عن كافيتريا بالقرب من بيتها الذي تنزل فيه كلّما زارت الوطن.

سألتني إن كان يناسبني، فقلت متضاحكاً إن أي مكان تكون معي فيه يصبح مكاناً جميلاً. وقفت في وجه التسلل العاطفي الذي تشي به كلماتي. وغيّرت الموضوع عندما قالت بحسم، إنني يجب أن أمـر عليها، ونذهب سوياً إلى مكان اللقاء، حيث إنها عابرة وغريبة، ولا

توجد معها سيارة، واللجوء إلى التاكسي في حيّها البعيد، مسألة لا ترحب بها، بدت لي قادرة على أن تزن كل كلمة قبل النطق بها.

كنت سعيداً، وربما كانت من المرات القلائل التي أفاجأ بنفسي فيها مرغوبا من امرأة بهذه الصورة، بعد أن قضيت العمر كله ألهث وأجري وراء الأخريات. وهو الجري الذي كان بدون جدوى.

كنت في الطريق إليها، في الموعد المحدد. ورغم ادعائي أنني لست مريضا في اتصالي بها. فها أنذا أفاجأ بأنني في مواجهة نفسي. عاريا من الظلال التي يفرضها وجود الآخرين أحيانا. قد نضحك على الغير بعض الوقت، أو نمثل عليهم. ولكن عندما يصبح الإنسان في مواجهة نفسه. هل يملك غير الحقيقة المجردة، بعيدا عن الظلال والألوان؟!

المرآة التي أنظر فيها إلى نفسي الآن ليست محدبة ولا مقعرة، مرآة حقيقية. وهكذا، وجدت نفسي في مواجهة نفسي، وهو ما أحاول الهروب منه دوماً. إن صخب الآخرين الذي نتشدق بالرغبة في الهروب منه. قد يحمي الإنسان أحيانا من كارثية التحديق من جثث آبارنا الميتة.

ضبطت نفسي وأنا أستعرض ما آل إليه حالي. كنت أقترب من الضفة الأخرى لليأس. غريق لا يجد حتى القشة التي يتعلق بها قبل أن يغرق.

الحكاية أمر من المرار على القلب. كنت مثقلا بجراح الأعادي. وطعنات الأحبة، وغدر الأصدقاء. واكتشاف أن كل جري العمر، كان وراء سراب لن أصل إليه أبدا.

وصلت إلى بيتها. كان معي عنوان مدون في ورقة، وعلامات تساعدني في الوصول. أرسلت لها بواب العمارة وبقيت واقفاً أسفل العمارة. نزلت يسبقها عطر لم تغيره بعد ذلك. وكانت رائحته هي التي

تعلن عن قدومها في كل مرة.

كانت ترتدي ملابس بسيطة. كما لو كانت ذاهبة إلى النادي، سلّمت علي بجدّية لا تتصنعها. وجلست بجانبي في صمت. وظلت هكذا حتى وصلنا إلى المكان الذي اختارته للقاء.

استغربت وأنا أنظر إليها بطرف عينيَّ. الملابس البسيطة أخذتها إلى الوراء. أنقصت من عمرها سنوات لا تقل عن العشر. فكرت أن أقول لها ذلك. ولكني خشيت أن يعد ما أقوله نوعاً من رفع الكلفة قبل أن يحين الأوان. قلت لنفسي: من الصعب أن تحتفظ الطبيبة بهذا القناع كل الوقت. دقائق معدودة ويصبح البساط أحمدياً. وأصبح على مشارف رحلة التسلل. أبدأ أنا بالدخول إلى شوارع حياتها الخلفية. قبل أن تقوم هي بذلك معي. تساءلت: لقاء أم مباراة. هذا الذي نحن فيه؟!

هي التي اختارت المكان. وكان قريبا من عش للعشاق كان الوقت مساء فطلبت عصيراً. أما هي ففضلت الشاي بدون سكر. وذلك بعد أن رفضت فكرة الطعام. قالت لي متأففة: «تناول الطعام أهم ما تقومون به» قلت لها: «إن فكرة الكرم تنبع من الطعام». قالت وهي تحرك يديها دلالة على الملل والفتور: «بيني وبين الطعام ود مفقود» حسدتها على هذه الطمأنينة المستحيلة. فالتوتر الذي أعيشه يجعلني أفشّ غلي في تناول طعام لا أشعر بالرغبة في أكله. أحرك أشداقي بدلا من الجلوس ساكتاً.

سألتني بطريقة اقتحامية عن العمل. رددت على السؤال بسؤال «أي عمل؟! الوظيفة أم الكتابة؟!» قالت: كلا الأمرين. قلت لها: أدور كالثور في ساقية الوظيفة. سألت: والكتابة؟! قلت بدون تفكير: صدأت أقلامي. وبياض الورق أمامي يتسع. يوشك أن يصبح باتساع الكرة الأرضية نفسها.

ما لم أقله، أن القدرة على التحليق تتراجع. لم أعد أحلق سوى

في أحلامي. أحلام الليالي الطويلة. وحتى عندما أطير في الحلم. فـإنني أكتشف بعد أن أوشك على الوصول إلى الأعالي. أنني بـدون جنـاحين. وأصحو قبل أن أرتطم بالأرض من سقوط مدو.

كتمت جملة كادت أن تخرج من فمي «أن الجحيم الحقيقـي علـى الأرض. هو فقدان القدرة على الحلم» في الذهن خواء. وفي الوجـدان فـراغ. والقلـب يصـاب بـالتعب حتـى مـن الاحسـاس بالراحـة. والنفـس مكروش بدون أن أتحرك، والدافع حتى لتحريك اليد لم يعـد لـه وجـود. يبدأ اليوم مثل الجبل. لا أعرف كيف سأقضيه. وما إن تمر ساعة منـه. حتى أنظر إلى ما فات وكأنه قرن من الزمان قد جرى إلى الوراء.

كان كل سؤال نطقت هي به، فيه نصف الطريق. إلى الإجابة. في مقدمات الأسئلة توصيف دقيق لحـالي. كمـا لـو كـانت تعيش معي فـي البيت. وتتبعني كظلي في العمل. والحياة العامة. وفي كل مرة، بدلا من الإجابـة. كنـت أسـألها: وكيـف عرفـت؟! سـألتني عـن النـوم المتقطـع. والصحو بسبب أكثر الأصوات خفوتا، والاسـتيقاظ فـي منتصـف الليـل. والصحو حتى الفجر ثم معاودة النوم من جديد. حدثتنـي عـن الصـداع الذي يلازمني كل أوقات النهار.

حاولت معرفة نوعية الأحـلام المكـررة. واختلافهـا عـن الطارئـة. سألتني عن المنامات المليئة بالمطاردات والصدامات والهزائم التي بـلا نـهاية. والصحو فزعاً من هذه الأحلام في لحظة تحولها إلـى كوابيس، والإحساس بالعطش الحارق لحظة الصحو من النوم. وطلب الماء حتـى لو كان الزمن هو قلب الشتاء الثلجـي البـارد. ومهمـا شـربت لا أشـعر بـالإرتواء.

شعرت بانزعاج حقيقي عندما وجدتها تسألني. ما إذا كنت أضبـط نفسي. أكلم نفسي في بعض الأحيان؟ وفي أي الأمور يكون هذا الكلام؟ وأين؟ ومتى؟! قلت لها: أغني لنفسي؟ نعم. ولكن أكلم نفسي، لم أصل

بعد إلى هذه الحالة. قالت بثقة: من المؤكد أنك ستصل إليها ما لم تعالج نفسك من الآن.

لدي فكرة ثابتة أن أطباء التحليل النفسي، هم الوحيدون الذين تذهب إليهم سليما. لا تعاني من أي مرض. ومع هذا، تكون مهمتهم هي إقناعك أنك مريض بأكثر من مرض.

مريض نفسي؟! هل هذا معقول؟! لقد عشت حتى شاهدت بلادي مريضة. وأقابل في اليوم الواحد عشرات بل مئات من المرضى. وأعود إلى البيت لكي أدون في دفتر مذكراتي «من المؤسف أنني عشت هذه الأيام» فماذا سأقول عن نفسي؟! لم يكن ينقصني سوى علة النفس. مع أن جسدي تأكله الأمراض واحداً وراء الآخر.

عندما جئت إلى هذا المكان، كانت عندي رغبة حقيقية أن أحكي، وأن أتكلم، وأن أستفيض. أفضفض، أبوح. ولكن الأسئلة التي وجهتها إلي منعت التدفق، وحالت دون الوصول إلى حافة الغناء والرغبة في الحديث.

كنت أقول لنفسي وأنا في الطريق إليها. أن القدر عندما يصل إلى درجة الغليان. لابد من رفع الغطاء عنه. عملية تنفيس لا مفر من اللجوء إليها. إن احتباس الكلمات مرض. وغياب من تتكلم معه مأساة.

كنت مرهقا ومتعبا. مددت يدي من أجل أن أشرب المياه الباقية في الكوب. شعرت بعطش مفاجئ. ضحكت وهي تقول لي إن هذه المياه ليست من أجل الشرب فقط. كدت أن أقول لها: لها العديد من الاستخدامات الأخرى. ولكنها عاجلتني قائلة: ومن أهم الاستخدامات الجميلة للمياه أننا نستحم بها. استدركت موضحة: الاستحمام ليس من أجل النظافة فقط. ولكنه وسيلة أيضا لغسل الهموم والأحزان. والمياه هي الوحيدة التي يمكنها أن تفعل هذا.

حاولت أن أعتصم بتصوري أنني إنسان خفيف الظل. وأقول لها

وأحكي عما يثيره الماء النازل من الدش من خيالات في النفس. ولكني قلت لنفسي: لماذا أتعجل؟ المطلوب فقط هو القليل من الانتظار وسيحدث كل ما أتمناه. ربما بدون أي مجهود. ولأن السيطرة على نفسي تصبح مستحيلة أحيانا. اكتفيت بالقول: إن الوقوف تحت الدش حكاية.

لم يكن بداخلي قبول لفكرة أنني مريض. أما هي فقد تعاملت معي باعتبار أنني مريض. ولم يبق سوى العلاج. كان لديها يقين حسدتها عليه. كانت تتكلم عن أمور حسمتها بداخلها. أين التردد الذي يعشعش بداخلي؟! حاولت مناقشتها في أنني لست مريضا. وأتكلم عن أعراض الصحة التي أتمتع بها. ولكن ذلك كان صعبا عليَّ. فكيف أقنعها به؟!

كان نصف ذهني معها. والنصف الآخر يفكر في مستشفى الأمراض العقلية. الذي أمر عليه مرتين في اليوم. مرة في النزول إلى المدينة. والثانية عند العودة إلى البيت. إنه المستشفى الذي كنا نسميه في بلدنا السرايا الصفراء. مع أنها ليست سرايا وليست صفراء. وما أراه هو غابة جميلة من الأشجار الكثيرة. وكلما مررت أمامها. تساءلت عن الحياة التي وراء هذه الأشجار.

إن كنت في الصباح أقول: إفطار في بيت المجانين. وإن جاء مروري وقت الغروب أهمس: نزول الليل على الذين فقدوا العقول. أما في الليل. فقد كنت أحاول الهروب من منظر الغبار التائه وسط الظلام والصمت.

ولكن كلامها الذي كان يؤكد المرض. كانت فيه نبرة مطمئنة أن العلّة في بداياتها الأولى. وأن الأمر لا يستحق القلق.

كنت أرغب في فتح الموضوعات. وهي كانت أميل إلى تقفيلها. كنت مازلت مترددا في قبول فكرة المرض. وهي كانت قد غسلت يديها من الأمر. وبحكمة – لا نجدها عادة عند النساء – قالت: لنؤجل الكلام

إلى ما بعد. الآن ليس أمامنا سوى العمل. وبعد النتيجة يكون من حقي الحديث. وعليها الاستماع إلى ما أقوله. مهما كان.

* * *

أخذتني ونزلت، مشينا على أقدامنا في الحي الذي تسكن فيه. وهو من أحياء الضواحي البعيدة عن قلب المدينة. ذهبنا إلى أكثر من صيدلية. تكلمت مع الصيدلي في الأولى عن الأدوية التي يمكن أن تفيد في حالتي. قدم لها الصيدلي الذي بدا لي أنه يعرفها، أكثر من دواء. دار بينهما حوار عن الدواء. التقطت أذناي كلمات عن الأسعار، والآثار الجانبية ومكان الصناعة، وسنة ورود هذا الدواء إلى مصر.

لفتت نظري الأرقام الفلكية لسعر الدواء. الذي كان يبدأ بعد المائة جنيه. والهمس عن آثار جانبية عن النوم وشهية الطعام وبعض أعراض الجلد. بدأت بعد المناقشة في وضع أنواع الدواء الكثيرة بجوار وفوق بعضها. لدرجة أنها أصبحت تشكل هرما صغيراً. وكلها لمرض واحد. الذي من المفترض أنني مريض به.

كان الزحام حولنا شديدا. أصبحت الصيدليات تنافس محلات السوبر ماركت. أحيانا أتوقف في الصيدلية عشر دقائق حتى أصل إلى دوري في الشراء. شعب مريض، يئن ويتوجع. أم أن شراء الدواء أصبح يعبر عن المكانة الاجتماعية. مثل شراء الملابس ولبس الأحذية وركوب السيارات. وحتى هذا. إنما يعبر عن حالة مرض عام.

أزاحت هرم الدواء الذي لم يكن صغيراً. وشكرت الصيدلي. حاولت السخرية من نفسي. قلت ولكن لنفسي: هرمنا وهرمهم. هرمهم كان هدفه الخلود ومقاومة الفناء، وإعلان الحرب على النسيان. وهرمنا للعلاج. كانت هناك مقارنات أخرى كثيرة عن الهرم الذي من الحجارة، بالهرم المكون من علب الدواء. الأهرامات التي هي إحدى

عجائب الدنيا السبع. فهل أصبح أنا بمرضي عجيبة تضاف إلى عجائب الزمان القديم وتجعلها ثمانية؟

نزلنا، كانت تمشي صامتة، تنظر إلى الأرض التي لم نكن نرى منها شيئا. ولم أشأ أن أسألها. ولكن كان واضحا من طريقة سيرها أنها تبحث عن صيدلية أخرى. اكتشفت وأنا أسير معها في هذا الليل الهادئ. أن الصيدليات كثيرة مثل البيوت. وأكثر من المحلات بكل أنواعها. تذكرت أنني قرأت مؤخرا، في الجرائد، عن قانون يحد من إقامة الصيدليات. لأنه ينص على مسافة في الشارع بين الصيدلية والأخرى. حتى لا يصبح لدينا بين الصيدلية والصيدلية. صيدلية.

كانت هناك صيدلانية، امرأة وليست رجلا. ما جرى مرة أخرى. مع تغيير بسيط. أن الصيدلي هذه المرة امرأة. ولم يحدث التجاذب بسرعة ونعومة التعامل مع الصيدلي الرجل. إنزال أدوية من فوق الرف. فتح العلب، لا بد وأن هذا امتياز من نوع خاص للدكتورة التي معي أو الذي أنا معها. فلم تنس أن تقدم نفسها للصيدلانية. قراءة النشرة الداخلية. مناقشة حول بنود بعض هذه النشرات. وحديث صامت عن آثار جانبية.

هذه المرة أحسست بالخجل في وقفتي. لابد وأن هذه الصيدلانية قد خمنت أنني المريض الذي تبحث له هذه الطبيبة في هذه الساعة الليلية عن دواء. عزائي أن الصيدلانية لابد وأن تدرك أنني مريض سوبر. يحتل مساحة في اهتمامات الطبيبة، وربما في قلبها. ولذلك نزلت معي إلى الصيدلية بنفسها. بدلا من كتابة روشته وتركي وشأني.

انتهت المناقشات إلى لا شيء. سألت الطبيبة الصيدلانية عن الصيدليات الكبرى في المدينة. ردت على السؤال بسؤال: ماذا تقصدين بالصيدليات الكبرى؟ هل نحن صيدلية صغرى؟ شغل حريم. هذا من الأمور الطبيعية. خشيت أن يتطور الأمر إلى وصلة ردح من إياها.

قالت لها الطبيبة: أي صيدلية تستورد الدواء مباشرة من الخارج. بعيداً عن أي جهة. ذكرت لها الصيدلانية أسماء أربع صيدليات. رحت أحاول أن أتذكر إن كنت قد رأيت إحداها. أم سمعت عنها فقط. قالت إن كل واحدة منها عبارة عن شركة مساهمة. رأسمالها يصل إلى الملايين.

كانت هناك صيدلية من الأربعة. قريبة منا. عرضت عليَ أن نذهب إليها. قالت: خير البر عاجله. قلت إنها تحاول أن تبدد أي إحساس بغربتها بهذه الكلمات الصميمة. والتي تبدو جزءا من وجداننا.

في الصيدلية المهولة. خيل إليَّ أنني مريض. وأن حالتي ميئوس منها. وأنني أوشكت على الموت. دون أن أدرك هذا. كانت الناس تقف على شكل طوابير. وعدد الصيادلة أكثر من عدد الجمهور.

كان الكلام يتم عبر سور من الحديد. يفصل الجمهور عن الصيادلة. أليس التعامل هنا مع مرضى؟ قد يكونون مرضى نفسيين، مثل حالتي، ولذلك لابد من مثل هذه الحواجز. فالاحتياط واجب. كان الذي يقلل من كآبة الحواجز أنها كانت ملونة، بألوان مبهجة.

وبسبب الحواجز، كان من الصعب إجراء حديث إنساني عن الدواء. وكان من المستحيل إحضار كمية منه. وحتى لا أصاب بخيبة أمل أمامها. فقد سألت الطبيبة عن دواء معين. وقيل لها إنه غير موجود في مصر. ولم يصل إليها. وخيل إليَّ أنها تعمدت أن تسأل عن الدواء المستحيل حتى نكون قد خرجنا بشيء من هذا المشوار العبثي.

كانت الطبيبة الجميلة تتعامل معي. كما لو كنت مصنوعا من الزجاج. وهي تخاف عليَّ من الكسر. وهذا الإحساس جعلني سعيدا لبعض الوقت. إحساس كنت في أمس الحاجة إليه.

* * *

ركبنا السيارة من جديد، هذه المرة سألت: إلى أين؟! قالت كلمتين باختصار شديد: إلى البيت. لابد وأنها تقصد بيتها. ذلك أن بيتي أنا لم يدخل في الكلام من قريب أو بعيد. ستتركني إذن والموقف معلق. المرض وقالت إنّني مريض. مرض ليست له أعراض. سوى تلك الأعراض الافتراضية التي تحدثت عنها. والتي لا يمر يوم إلا ونشعر بها. إن الصحيح في بلادنا يخشى أن يقول إنّه سليم. ثم إن المعاناة هي – في تصور البعض – جواز المرور إلى الفن والهيمان والتوهان، والنظرات الزائغة أكبر دليل على أن الإنسان موهوب.

كنا في مرحلة التعارف. كنت على مشارف عالمها. وكانت هي على تخوم دنياي. وكان من الواضح أنها تقيم مسافة بيني وبينها. لا تقول اسمي إلا مسبوقا بكلمة الأستاذ، وأنا أنطق كلمة الدكتورة أولا.

لم تكن تتكلم، في الطريق إلى بيتها سوى عن التغيير الذي يحدث للبلد. وكانت تتحسر على الوطن الذي تركته وسافرت. لاتبدو مرحبة بالبلد الجديد الذي خرج إلى الوجود في غفلة من الزمان.

أمام بيتها توقفت. كنت متصوراً أنني سأوصلها إلى بيتها. وأعود إلى منزلي، القريب من بيتها، قلت لها: «تصبحين على خير». وبدأ لساني يتجول في فمي بحثا عن كلمات شكر لها. تعجز اللغة عن وصفها. منذ أن جئت إلى الدنيا، وأنا أخدم الآخرين، ولكن لكثرة ما خدمت. لا يقدم لي الآخرون سوى اللعنات. لدرجة أن أحدهم فكر أن يهاجمني فقال عني: «عندما لا يجد من يخدمه، ينزل إلى الشارع، بحثاً عن الذين يقدم لهم الخدمات».

كانت هذه المرأة الجميلة من أوائل الذين يقدمون لي خدمة دون طلب مني. وقبل أن أبدأ في كلمات الشكر. قالت لي آمرة: «تعال معي». سألت: إلى أين؟! قالت: إلى بيتي.

نزلت الدكتورة في صمت. استيقظ الرجل الشرقي بداخلي. طرحت عني ملابس الهموم والأحزان التي حاولت أن تلبسها لي. وتصرفت كما لو كنت مقدما على مغامرة من النوع اللذيذ، الست الدكتورة رسمت عليَّ. دون أن أدري، كل ما جرى كان مقدمات. مع أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين أي نقطتين.

وقفت هي على التر طوار. انتظرتني حتى ركنت السيارة بجوار الرصيف. ثم أغلقت أبوابها بعد نزولي منها. مشيت وراءها. وكان شلال الغناء القديم يهدر داخلي معلنا عن بدء التحليق الجميل.

كانت العمارة مستطيلة. أربعة أدوار فقط. ومع هذا فوجئت بوجود مصعد. لم يكن له مبرر من وجهة نظري. نظرت الدكتورة في صندوق البريد، الذي كان يحمل رقم شقتها ومدوناً عليه اسمها. اتجهت إلى المصعد. أخرجت سلسلة مفاتيحها. وفتحته. ودخلت ثم دعتني للدخول. ربما كانت المرة الأولى التي أذهب فيها مع المحبوبة إلى البيت. في العادة إما أن أذهب إليها بمفردي. أو أن تحضر هي إليَّ وحدها. أما أن نعود إلى البيت قرب منتصف الليل. في هذا الصمت الليلي الجميل، كزوج وزوجة، فهذا لم يحدث لي من قبل.

هل قلت المحبوبة؟! هكذا تصورتها. وكان بداخلي إصرار على أن أصفها بتلك الصفة بيني وبين نفسي. لم أصرح لها بذلك. وهي من جانبها كانت تتصرف بتحفظ. يتناقض - من وجهة نظري - مع كل هذا الاهتمام الذي تبديه نحوي.

كنت أخشى أن يرانا أحد من سكان البيت. لابد وأن منظرنا سيشكل له علامة استفهام. فكرت أن أطلب منها الصعود أولا. وألحق أنا بها بعد ذلك. ولكني خجلت من هذا. مضيت معها. لماذا أخلق المشاكل قبل أن تحدث؟ لماذا أغلق الطريق قبل السير فيه؟ لست في حاجة إليك أيها العقل. سأمنحك إجازة مفتوحة من الآن. من يدري؟

ربما لا أحتاج إليك بعد اليوم. يقولون إنّ من يستغني عن عقله هو إنسان سعيد. وأنا سأحاول أن أفعل هذا. ولو لمرة واحدة.

* * *

بيت مسافرين. الأثاث قليل ومتناثر. ولذلك تشعر أن البيت في اتساع الدنيا. على مقعدين وراء الباب جاءت جلستنا. كنا قادمين من جلسة في كافتيريا. وجولة سريعة بحثا عن شيء لم نجده. والليل أصبح قريبا من لحظة الانتصاف. عرضت عليّ أن تسقيني شيئا، على طريقة عزومة المراكبية. وأنا شكرتها.

في مواجهة جلستنا غرفة نومها. وكانت ضلفتا الباب، باب غرفة النوم. واحدة مواربة، والثانية مغلقة. وثمة شريط يمكنني من الرؤية. ملابسها مكومة على سرير ضخم يحتل الغرفة كلها. أقرب إلى تصرفات الأطفال.

تركتني أمامي مجلة أجنبية عن السيارات. فيها أنواع منها لم أرها من قبل. لا توحي الشقة أن ثمة حياة هنا. لا روائح محببة إلى النفس تأتي من المطبخ. وليس هناك صوت موتور الثلاجة. أو ذلك الأزيز المستمر باستمرار عملها. كما أن جلدة الحنفية ليست متآكلة وموسيقى صوت تساقط القطرات. قطرات الماء، التي تنزل يبرد وحشة المكان. والطنين الذي ينبعث من اللمبات بعد مضي فترة من عملها. لم يكن له وجود. والجدران ليست مغطاة بنتف الغبار الذي يتراكم مع مرور الزمان. الكرسي الذي جلست عليه. يبدو وبره واقفا. لم يجلس عليه أحد قبلي. وعندما توقفت أمام باب الشقة وهي تفتحها. لم تكن هناك صفيحة زبالة. تفوح منها روائح اختمار بقايا الطعام. ولا تحوم حولها قطط تشمشم وتدسّ أنفها في الصفيحة.

تركتني ودخلت. لم يكن دخولها إلى غرفة النوم. ولكن إلى ممر

جانبي. لا أعرف إلى أين يؤدي. عادت ومعها علبة دواء. من العلب التي شاهدنا أنواعا منها في الصيدليات التي زرناها. لابد وأن ثمنها أكثر من غال. قدمتها لي. قلت: «وثمنها؟ إنه ليس معي الآن». قالت: ترسل شركات الدواء أدوية لي بمثابة عينات.

لم يكن هناك ختم على العلبة يقول إنّها عينة. كان في يدها دواء جديد لم نره في أي صيدلية ذهبنا إليها. قالت لي: هذا منوم يعالج الآثار الجانبية التي يمكن أن تنشأ عن تناول هذا الدواء. أخذت الدواءين وشكرتها. سألتها عن الأعراض الجانبية هذه. طول عمري أخاف من الدواء. قالت ببساطة، ولكن بطريقة ولدت عندي ثقة غير محدودة: يمكنك الاتصال بي. وستجدني بجوارك في غمضة عين.

جلست أمامي. وجودنا في بيتها في هذا الوقت الليلي. جعل ذهني يعمل بشكل محموم. ألست معتل النفس؟! خيالي مسرح تدور فوقه أحداث مهولة. هذا أنا. وهذه هي المرأة. ونحن في مكان مغلق. ولكن أين الشيطان الذي سيوصلنا إلى اللحظة إياها؟! تلفت حولي. ولكني تذكرت أن الشيطان لا يمكن رؤيته.

ولأن الوقت بدا لي ثقيلا. ولم أعرف كيف أتصرف. سألتها عن ظروفها العائلية. ألم تعرف هي عني كل شيء؟! قالت لي إنّ لها ابنة في الجامعة. وابن في مرحلة تقابل التعليم الثانوي عندنا. نظرت إليها من جديد. ابنة في الجامعة؟! إن شكلها يوحي أنها – أي الدكتورة – هي التي في الجامعة. ولكن كل شيء جائز.

عند الحديث عن زوجها. ظهرت الهموم على وجهها. بدت عندها رغبة في الكلام عنه. وعن الثلج الكامن وراء كل باب. وحول الحياة الجامدة. قررت الصمت. لا شيء يتعب من يريد البوح، أكثر من أن تقاطعه، وتوقف تدفق الكلمات على لسانه. أن تحول بينه وبين الراحة الجميلة التي تتمثل في الفضفضة والكلام بدون أي قيود.

ولأنني يسكنني فضول لا نهائي. أشرت إلى الشقة وسألت: شقة العائلة؟! قالت: شقتي أنا وحدي. تساءلت: والأسرة؟! ردت: نحن منفصلان.

بلعت ريقي بصعوبة. حاولت استيعاب ما قالته ببساطة، ولكنها أكدت لي أن ما جرى من الأمور العادية في البلد الذي يعيشون فيه. بعيدا عن الطرطشة العاطفية والألوان الحزينة التي نلون بها كل ما يجري هنا.

على الورق وفي الحياة هي وهو منفصلان. وإن كانا يلتقيان كثيرا من أجل الابن والابنة. وآخر مرة رأته فيها. كانت قبل سفرها. لكي يبقى الولد والبنت عنده حتى عودتها. وهي لم ترتبط. وهو مازال بمفرده.

تطلعت إليها. كان وجهها قد أصبح بلون التراب. وحالة الثقة بالنفس، التي تتصرف بها. والتي كانت تلامس الغرور أحيانا. بدأت في التلاشي مخلفة وراءها طبقة من خيبة الأمل.

نظرت بعيدا. لم أكن أحب أن أضبطها وهي مغطاة بغبار الهزيمة. ألا تكفيني هزيمتي أنا. سألتها: والعمل؟! استغربت من سؤالي: هو في عمله وأنا في عملي. سألت بدون الرغبة في إتمام الحديث: ومحاولات الإصلاح؟! قالت والحزن يسيل من بين أطرف الكلمات: «تاه منا طريق العودة».

بدت لي قلقة. لم تكن مستريحة لاستمرار الحوار بيننا هكذا. ولم تكن تريد أن تبدو ضعيفة. في داخلها نزوع للوقوف أمام أي ضعف إنساني. والقناع السميك الذي يغطي وجهها. كان الهدف منه إخفاء شحوب الخوف الذي يظهر على وجهها أحيانا.

خفت إن توقفت عن الكلام من الصمت الطارئ. وكان الاستمرار صعبا. وإن كنت قد سألت نفسي: متى وأين وكيف يمكن رؤية ولو

مشروع دمعتين في العينين اللتين أمامي؟

كانت تكتشف خلال الكلام أنها ذهبت أبعد مما يجب، فتتوقف، وتوشك أن تنهي الكلام. ولكن صوت الصمت. كان يشجعها على الاستمرار. أو بالتحديد الرغبة في الهروب منه.

كنت فقط أسأل أسئلة صغيرة تشجعها على الاستمرار في حكايتها. ذلك أن صوت حديثها عن الجليد الذي يفصلها عن زوجها، والأبناء الحائرين بين الأب والأم اللذين وصلا إلى طريق مسدود. كان يمكن أن يبدد الوحشة ويقلل الارتجاف.

قصت حكايتها معه من البدء وحتى الختام. والختام هو الجلسة التي نحن فيها. وخلال تحنان الكلمات تحولت الطبيبة إلى إنسانة وديعة. في أمس الحاجة إلى العطف والتعاطف والمشاركة.

عندما كنت أنصرف وقت الفجر، متسللا. كنت أقول لنفسي:

ومن الذي لا يشكو من وجع يئنّ منه؟!

إعلام وراثة

... مات خالي البيه، الذي نقول عنه خالي الحاج. شاهدت طقوس الموت والوداع من بعيد. ذلك أنني طفل صغير ليس من حقه أن يحشر نفسه حيث يجلس الكبار. لا الطفل ولا المرأة من حقّهما أن يكونا موجودين عند تقديم العزاء وتقبله. ذلك هو سلو بلدنا.

بكيت من بعيد على هذا الرجل الذي كان أحن من يطبطب عليّ. كان في مثل حنان الأم، وحنو الأب، وعندما يأتي إلينا، كان يضرب يده في سيالته. فلا تخرج خالية أبدا. لابد من خير يأتي من عنده. وإن لم يوجد هذا الخير على شكل نبوت الغفير، أو الحلاوة العلف، أو السوداني. فلا أقل من أن يقدم لي مبلغا من المال.

كنت أقاوم ضرب أبي، وزجر أمي بعد انصرافه. لأنهما يريدان أخذ المال مني. باعتبار أن خالي الحاج يعطيه لي من أجل خاطرهما. وليس من أجل سواد عيوني. كان أبي يفشر ويقول إنّه يرد لخالي هذه الأموال التي يقدمها لي. وإن كنت أتساءل: يردها لمن؟! فخالي ليس عنده عيِّل ولا تيِّل.

كنت آخر العنقود في بيتنا، وإن لم يقل أحد عني إنّني سكر معقود. كما يفعل أولاد الذوات. يسبقني طابور طويل من الاخوة والاخوات. عندما أقف بجوار شقيقي الأكبر أو شقيقتي التي جاءت فوق رأسه أبدو كما لو كنت ابنا له أو لها. بل إن بعض أولادهما أكبر

مني في السن. ويغضبون عندما يقال انني عمهم.

ولكن خالي الحاج كان يحبني أكثر من إخوتي كلهم. حب للـه في الله. وعندما كان يحضر إلينا وقت الغروب، كان يضع يده على رأسي طول وجوده في بيتنا. وكان ينظر إلي ويهمس لنفسه بكلمات تعبت كثيرا حتى جمعت الجملة التي كان يقول جزءا منها في كل مرة. وهكذا اكتملت الجملة التي كانت تقول كلماتها: «من تكتب له الخلفة لا يموت أبداً».

مع مرور الأيام وكر الليالي عرفت أن خالي لا يخلف. وبعد أن تعودت على المشي بمفردي وحاولت أن أذهب إلى بيت خالي، اكتشفت أن له بيتين، بيتا في البلد، وبيتا آخر في البندر القريب. وسمعتهم يقولون إنَه جرَّب حظه مؤخرا. لعل وعسى. وان اللـه سبحانه وتعالى لحكمة لا يعرفها أحد من بني البشر، لم يرزقه بالخلفة، لا من زوجته الأولى ولا من الثانية.

كنت أشاهد خالي في أيامه الأخيرة وهو يتمشى على مهله في حواري البلد. كان يخيل إلي أنه يكلم نفسه وفي وقت الشتاء كان يفضحه بخار خارج من فمه، وفي الصيف يحرك يديه بطريقة عصبية. عندما كان يشتد كلامه مع روحه. أو يختلف مع نفسه، أو يغضب مما يقوله لنفسه. ولشدة حبي لخالي. لم أقل لأحد اكتشافي هذا. وقررت أن يبقى سري الخاص. حتى أصل إلى المرحلة التي يمكنني فيها أن أكلمه في هذا الأمر، دون أن أخشى عقوبته لي. أو غضبه مني.

وقبل أن أكلمه. مات هو ذات مساء. أتى من خبط على باب بيتنا. وقال صارخا بصوت عال: «الحاج مات». لم نكن في حاجة لكي نعرف من المقصود. فما أكثر الحجاج في البلد. ولكن عندما يقال الحاج. لا يكون مقصودا بذلك سوى خالي الحاج وحده دون سواه. أما من تبقى من الحجاج فكنا نقول عنهم حجاج «عيرة».

من حمل إلينا الخبر المشؤوم مضى. قبل أن نسأله عن ظروف الوفاة. كانت أمي قد تقدمت في العمر. ولم يعد الموت قادرا على إخافتها. ربما كانت تستعد له. ومع هذا صوتت ولطمت خدودها.

لم يوقفها سوى صوت الميكروفون. الذي بدأ يلف في البلد يعلن النبأ الحزين، ويحدد موعد الجنازة قبل صلاة ظهر الغد.

صدق من قال إنّ الحزن هو الشيء الوحيد الذي يبدأ كبيرا مثل الجبال. ولكنه يصغر يوما بعد يوم، إلى أن يذوب ويتلاشى. والعزاء لم يعد ثلاثة أيام مثلما سمعت من الأهل. وهم يتحدثون عن الأيام الخضراء. التي كانوا يتحسرون عليها. وهم يمصمصون شفاههم. ليلة واحدة عزاء وينفض الجميع. عاد الكل إلى بيته. وبعد دفن الميت - حتى وإن كان هذا الميت هو خالي، أحب الناس إليّ - لم يبق من كلام سوى عن ميراثه.

والميراث كان مشكلة المشاكل بالنسبة لخالي. لأنه لم ينجب لا بنتاً ولا ولداً. وسمعنا أنه قسَّم ما يملكه في حياته، وأنه باع بيعا، جميع ما كان يملكه، لكل من زوجتيه. الأولى التي تعيش في سرايته القديمة. وهي من أهل البلد. وزوجته الجديدة، البندرية. والتي شاهدناها مرة أو مرتين. وفضلت الحياة في البندر. وكان محرما علينا السلام عليها في الزيارتين. لأن هذا يغضب مرات خالي. التي هي من دمنا ومن لحمنا. وتحلف على المصحف أن لسانها لا يمكن أن يخاطب لسان من يسلم عليها.

وإن كانت مرات خالي الثانية قد بدت لنا من بعيد. من بنات البندر الصغيرات في السن. تلبس بندري. بيضاء وجميلة وصغيرة. لابد وأنها كانت تقول لخالي، عندما كان يختلي بها «يا عمي» أو «بابا الحاج». كانت تعيش لوحدها في البندر. لا يؤنس وحشتها سوى بنت خدَّامة أخذها لها خالي الحاج من البلد. وقال أهل السوء يومها إنَ

البنت تقوم بعمل الحارس. تحرس العروسة البندرية من شبان البنادر في الأيام التي لا يكون خالي الحاج معها فيها. ومن يوم أن سافرت البنت الخدامة، وهي ترفض الحضور إلى البلد. حتى لزيارة أهلها.

سريعا ما انتهت عملية العزاء. مر الخميس الكبير. وجاء الأربعين. وخرجت أمي إلى المقابر. ودفعت لمقرئ القرآن الكريم ما طلبه. نظير ترديد آيات القرآن الكريم على روح خالي. وعدنا لحالنا. لم يعد لنا كلام سوى عن ميراثه.

مرات خالي، التي أصبحت تعيش «هجالة» في السراية الكبيرة بطولها. ولا يؤنس وحشتها سوى خدامة تبقى معها. حتى مجيء الليل. تستأذن منها للذهاب إلى زوجها وبيتها وأولادها. فهي صاحبة بيت. تخدم عند مرات خالي منذ أن كانت طفلة، وكبرت معها وبقيت عندها حتى ما بعد الزواج.

بدأ الكلام في بيتنا حول الطريقة التي يجب أن نحوِّط بها على الولايا، بعد رحيل رجلهما. ولكنه تطور على نحو مثير. ليصبح من أجل التكويش على ما ورثتاه. قال أبي ذات مساء «جحا أولى بلحم ثوره». وبدأ ينفذ الخطة.

كان لي شقيق أوسط، أتم تعليمه ولم يعمل. فشلت كل الوساطات التي قام بها أبي من أجل أن يجد وظيفة له. ولأن أخي لم يجد عملا يذهب إليه كل صباح. ومع مرور الوقت بدأ يذهب إلى الجامع. قالوا في البيت، خير وبركة. كانوا يقولون عن شقيقي العاطل هذا، إنَه شراني، يعارك دبان وجهه. لا يضحك حتى للرغيف الخارج من الفرن. وعندما كان يكثر من النوم. من أول أيام بطالته. كنت أسمع أمي تقول عنه: «نوم الظالم عبادة».

بعد تردده على المسجد. ومكوثه فيه. بدأت تظهر عليه أعراض جديدة. أطلق لحيته. وأصبحت كثيفة السواد. وأمسك مسبحة. تبدأ من

يده. وتصل إلى الأرض. وعندما كان يمشي، فإن حباتها كانت تجرجر على الأرض. بشكل واضح. ولبس جلابيه بيضاء. كانت عنده جلابيه بيضاء وحيدة. وعندما كان يغسلها كان يجلس في البيت وينشرها حتى تجف. وكانت أمي تستعجل جفافها. حتى يمشي. واستبدل الحذاء ببلغه سوقي بيضاء.

غير أن أحدا منا في البيت لم يقتنع أنه أصبح متدينا، قال عنه أبي «إنه يأكل مال النبي» وقال شقيقي الذي يكبره «إنّه مشى في هذا الاتجاه كنوع من التجارة أو المغامرة، لعله يعود منها بشيء. قلب الأم هو قلب الأم ولذلك بدأت تخاف عليه من المشي في هذا الطريق. طمأنها أبي. وقال لها إنّ ابنها يفوت في الحديد. وأنه يستطيع أن يذهب بالذين معه إلى البحر ويعود بهم وهم عطشى.

يوم وفاة خالي الحاج. أصابت شقيقي حالة من النشاط. ترك الجامع. ووقف وسط أهل الميت، عرض عليهم أن يأخذ الميتم مقاولة. مقابل مبلغ مقطوع من المال. وهو يتولى كل شيء بنفسه. رفضوا أن يدفعوا مقدما. قالوا له «اصرف ونحاسبك». استلف من هنا. ونتش من هناك. وبكت أمي من جديد ليس على خالي هذه المرة. ولكن على خرجته. التي تحولت إلى جرسة وفضيحة في البلد.

أحضر أخي الذي غسّل خالي. واشترى الكفن. وأولاد عم خالي شافوا القماش قبل أن يستخدم فضرب الناس كفا بكف. قالوا إن أهل الميت خافوا من أخي. ما كانوا يحبون أن يقوم هو بأي شيء. وبلعت أنا سؤالي، عما إذا كان أخي قد أصبح شيخ منسر أو قاطع طريق، يخافه الناس، ويعملون له ألف حساب، ولا يجرؤ أحد أن يشيل عينيه فيه.

وأخي هو الذي أحضر الذين خدموا في ليلة المأتم. والميكروفون. ومقرئ القرآن الكريم. الذي قال لأهل البلد، إنه معتمد

في الإذاعة. مع أن أحداً لم يسمع عنه من قبل. وإن كان الناس قد تجمعوا حول الدوار، بعد العزاء، من أجل الاستماع إلى الشيخ الذي أحضره أخي، وعندما سمعوا عن المبلغ الذي أخذه المقرئ، وكان أعلى رقم يدفع لمقرئ في ليلة. منذ أن وعى الناس مثل هذه الأمور. وأقسم المعمرون في البلد. أن عبد الباسط عبد الصمد ومصطفى اسماعيل الذي قرأ «وإذا أردنا أن نهلك قرية» في حضرة الملك فاروق ذات نفسه، لم يحصلا على مثله، وضخامة المبلغ دفعت الناس إلى القول أن أخي اقتسم معه أجره عن الليلة. وأن المقرئ لم يجرؤ أن يعترض. فإذا كان أهل الميت. ولهم عزوة في البلد، ويعتبرون من أجاويد العرب، خافوا منه، فما بالك بشيخ غريب. لا يعرف أحد من أين أتى؟ وسيعود إلى بلدة في أنصاص الليالي، غريبا ووحيدا يحتاج لمن يحميه.

بعد أن انفض مولد العزاء، وانقطع وصول السيارات من البلاد المجاورة، وربط الركائب في شبابيك البيوت المحيطة بالدوار، طال مكوث أخي في البيت. وقل ذهابه إلى الجامع، إلا من أجل أن يخطف الصلاة خطفا، ثم يعود. وطول وجوده في البيت، كان يلف ويدور حول موضوع تركة خالي. ومن سيرثه. قالت له أمي أكثر من مرة. إن المرحوم لم يترك تركة. لأنه باع لزوجتيه كل ما كان عنده. حتى البيوت قسمها بالعدل. قال أخي: «روج الاثنين يا قادر.. يا..» ولكن أمي منعته من أن يكمل الجملة. التي هي مثل شعبي. فنحن نعيش. أو كنا نعيش بفضل ما كان يقدمه لنا خالي.

ذات مساء، عاد أخي إلى البيت. أخذ أبي إلى ركن بعيد عنا. فيما يشبه الرغبة في التواطؤ. كان يتكلم همساً. اقتربت منهما في ظلام لحظة الغسق. ولم يشعرا بي لقلتي وصغر حجمي. كان أخي يقول لأبي إنّه اختلى بنفسه أياماً وليالي يفكر في تركة المرحوم ومصيرها.

الجميع لا يقول عنه خالي الآن. حلت مكانها كلمة المرحوم.

قال أخي إنهم إن تركوا الأمر هكذا من المؤكد أن زوجته الجديدة ستتزوج شخصا غريبا. يجلس على التركة. ويستولي عليها. ومن يدري؟! من يضمن أن زوجته الأولى قد تفعل مثل الثانية. ويذهب ما جمعه الرجل في حياته لرجلين غريبين يأتيان من المجهول. وبعد الاستيلاء على كل شيء يهربان.

«الحل الوحيد»، قال أخي. وأبي ينصت إليه بهدوء. شرح فكرته. أن يذهب هو – أي أخي – إلى زوجة المرحوم الجديدة، ويطلب يدها. وفي نفس الوقت يذهب أبي إلى زوجته الأولى ويطلب يدها. والسبب في الذهاب في نفس الوقت. أن يقول أخي للزوجة الثانية. إنَ الأولى وافقت فعلا على الزواج من أبي. وأن يقول أبي للزوجة الأولى إنّ الثانية قد وافقت على الزواج من أخي. وأننا سألنا إمام الجامع، فقال لنا إنّ الشرع لا يمنع هذا. وبهذا نضمن الموافقة المزدوجة في نفس الوقت واللحظة.

فكر أبي طويلا، لقد طال تفكيره، لدرجة أنه ضيَّع على أخي – كما قال له – صلاة المغرب وصلاة العشاء حاضرتين. كان يفكر بمفرده. ينكش أسنانه بقطعة سمر انتزعها من الحصيرة، أو يأخذ السبحة من أخي ويعد على حباتها. أو يعد على أصابعه. وتبرق عيناه في ظلام البيت الليلي الذي أصبح مؤكدا.

قال بعد تفكير استطال أكثر من اللازم، أنه موافق على الخطة. ما دام الحاج قد ربْعَنَ. وعرفت أن كلمة الربعنة تعني مرور أربعين يوما على الوفاة. وإن كنت لم أفهم سر الأربعين يوما. وسألت نفسي، لم لا يكون العدد تسعة وثلاثين. أو واحد وأربعين يوما. وأجلت فهم هذا الموضوع إلى ما بعد.

وهكذا أصبحت أنوء بحمل سري وحدي. كنت أضبط نفسي أمشي

وقد انحنت كتفاي نحو الأرض. كما يحدث للعواجيز في البلد. فأقول لنفسي إنَني عجَزت قبل الأوان. احترت ماذا أفعل بسري؟ كنت أقرب الناس إلي أمي. ولكن كان من الصعب عليَّ فتح الموضوع معها. فعلاوة على ذكرى خالي الذي كان بمثابة الأخ الأكبر والوالد لها، كان الأمر ينطوي على إحضار ضرة لها. وهو ما كان يقلق أمي في الفترة الأخيرة.

ذلك أن الشيخوخة التي ظهرت بشكل واضح على أمي في السنوات الأخيرة. وازدادت بعد وفاة خالي. لدرجة أنني نمت وصحوت في اليوم التالي، فخيل إلي أن أمي، كبرت عشر سنوات مرة واحدة.

أقول أن هذه الشيخوخة لم تعرف طريقها إلى أبي أبداً. كانت أمي تكبر. ترمح السنوات في عمرها. وكان أبي، في نفس الوقت، يصغر ويزداد شبابا، وكانت أمي تتكلم عن هذه الضرة. بلغة تقف في منتصف المسافة بين الوعيد والخوف مما قد تأتي به الأيام. وهذا جعلني استبعدها فوراً. ولا أسر لها ببعض ما يثقل فؤادي.

فكرت في الذهاب إلى أرملتي المرحوم خالي البيه، وكل واحدة يقال عنها في البلد «هجاله». أحذرهما من الذي سيحدث. كانت زوجته الأولى. الحاجة مرات خالي الحاج، قريبة منا. ولكن المشكلة هي في السفر إلى البندر، من أجل الوصول إلى عروسه الثانية. التي سمعنا أنها أصبحت على حل شعرها. يوم في الشقة التي اشتراها لها خالي في البندر. وعشره عند أهلها في بندر آخر بعيد. فضلا عن أنه لم يكن معي. لا عنوانها في شقتها المهجورة ولا عنوان بيت أهلها. الذي تذهب إليه.

وما جعلني أصرف النظر عن فكرة الذهاب إليهما. أنه ربما تراجع أبي وأخي عن تنفيذ فكرتيهما. وقد يختلفان حول الأمر، ولا يقدمان على ما هو أبعد من الفكرة.

رحت أراقبهما. خاصة في الأوقات التي يكونان فيها بمفردهما. ولا يدور بينهما سوى الهمس. وإن كانت هذه الجلسات قد تقلصت وأصبحت نادرة. ومع هذا كانت تتم في بعض الأحيان.

كانت لهما الخطة وما فيها. أما أنا فلم يبق لي سوى السر الذي لا يعرفه سواي. فكرت أن أتكلم مع أبي. إنه أفضل من أخي على كل حال. وإن كنت لم يسبق لي الكلام معه في مثل هذه الأمور من قبل أبدا.

كان أبي يجلس أمام بيتنا في الشمس على كرسي. واضعاً قدما على قدم. وهو يقرأ الجريدة. اقتربت منه فلم يشعر بي. تنحنحت، فعدل نظارته على عينيه ونحى الجريدة جانبا. وأنزل قدما من فوق قدم. ونظر إليَّ. جف ريقي وتاهت مني الكلمات. ولم أعرف ماذا أقول له. سألني هو: «فيه إيه يا ولد؟». اقتربت منه وأنا أكاد أجري، خوفا منه. فبقدر ما كان هينا لينا مع إخوتي الكبار. لم يكن لي عنده سوى الضرب. قلت له وأنا أجري. بعد أن وضعت ذيلي في أسناني «اصرفوا النظر عم الحكاية الله يخليكو».

لم يحاول معرفة الحكاية ولا يحزنون. ولكنه مد يده إلى البلغة التي كانت في قدمه. ولولا سرعة هروبي لرقع أصداغي بها. حسب ما قاله لي وهو يتوعدني.

من بعدها ما إن يشاهدني، حتى يكز على أسنانه، وترتعش أصابعه وهو يضغط ببعضها على الآخر. ويطق الشرار من عينيه وهو ينظر إليَّ. حمدت الله أنه لم يبلغ أخي بما فهمه من كلامي الغامض. لأنه كان كفيلا بفرمي. وجعل أكبر قطعة مني في حجم حبة الأرز.

إلى أن أتى يوم. لم يخرجا معا فيه. أبي هو الذي خرج أولاً. سألت أمي عن الحكاية، عندما وجدته يلبس كل هدومه التي على الحبل. وكان في الليلة السابقة قد ذهب إلى الحلاق فقص شعره. وحلق

ذقنه وسوى شاربه. وحمل هدومه إلى المكوجي ليكويها له بنفسه. وهو ما لم يفعله من قبل في العمر كله سوى مرات معدودة. ولمّع حذاءه عند الجزماتي واختار الشراب المناسب.

لعب الفأر في عب أمي. قالت لنفسها: دا ولا العرسان، وسألته عن الحكاية. فقال لها مغمغماً: «مشوار والسلام». ورغم أن مشواره هو القريب. إلا أنه خرج من البيت أولا. بعد أن أمسك العصا العوجه في يد والسبحة في اليد الأخرى. وكان يمشي على سنجة عشرة. ولم ينس قبل تركه البيت نصيبي من النظرات التحذيرية التي تتوعدني بكل ما هو مخيف.

بعده بقليل، حسب السيم المتفق عليه بينهما، مشى أخي. لم يستبدل الجلباب بالبدلة. مثلما فعل أبي، وإنما ارتدى جلبابا أبيضاً جديداً. يبدو أنه اشتراه من أجل هذه المناسبة. وأخي هذا. يقول دائما ان الفلوس تأتي بالفلوس. وإن كان لم ينظر ناحيتي. بل لم يبال بوجودي. وأمي لم تكن مهتمة بأخي، وإن كانت قد رفضت الربط بين الرحلتين بالفطرة، لأنها قالت له: مشوار والسلام، فبش في وجهها قائلا: فعلاً. وإن لم يكن راغبا في الأخذ والعطاء معها. وقد لاحظت عليه أنه كحل عينيه بكحل أسود فازدادتا بريقا.

سهرت الليل كله في انتظار عودتهما. ولكن النوم غلبني، قبل حضورهما. وفي الصباح، خرج أبي دون إفطار، وكان أخي قد خرج قبله. وقال أنه لن يعود. ذلك أن شهر رمضان على الأبواب. وهو يجهز للاعتكاف في المسجد كل هذا الشهر الكريم. وسيدعو شباب البلد. من أجل المشاركة في الاعتكاف. والأمر يحتاج إلى استعدادات وتخزين مواد طعام ووقود وخلافه.

أما ما جرى لوالدي عند زوجة المرحوم خالي الأولى. وما حدث لأخي عند زوجة المرحوم الثانية. فلم أكن محتاجا للسؤال عنه. لأن

البلد كلها عرفته. ولفت الحكاية على المصاطب وأمام دكان البقالة، وفي المقهى الوحيد في البلد. وأضيف إليها وحذف منها الكثير.

قال البقال إن إحدى الزوجتين. لم تجد عندها رداً أفضل من ضرب أبي بالشبشب على رأسه. وأن زوجة المرحوم الحاج الأخرى - لم يستطع أن يحددها أيضا - تفت في وجه أخي. وأن التفافه غسلت وجهه كله.

ما كان يحزنني. أن أي جماعة. كانت تحكي الحكايات. ما إن أقترب منها. حتى يتوقفوا عن الكلام فورا. وكأن الذي كان يتكلم قد أكل سد الحنك. ويحودون على موضوع آخر، أو يصمتوا لحين تركي المكان. فيتم استئناف الحكاية من عند النقطة التي توقفوا عندها.

ومع مرور الوقت تحول الصيع والعواطلية في البلد، وما أكثرهم، إلى فريقين. قال البعض حزبين. فريق يحكي حكاية والدي مع زوجة خالي الأولى، وما جرى له منها. وما فعل معها. وفريق آخر يحكي ما فعل أخي في البندر البعيد مع زوجة خالي الثانية.

كان كلّ من الفريقين يستعين بولدين من أجل أن يمثلا دور الزوجتين. وكان كل من الولدين. أبيض وملظلظ وتخين. ولأن الولدين خافا من الشائعات على سمعة رجولتهما. فقد امتنعا عن ذلك بعد فترة من الوقت.

وعندما كنت أستعد لترك البلد. من أجل استكمال تعليمي في البندر عرفت أن امرأتين من نسوان الغجر، تقومان بتمثيل الدورين. امرأة متقدمة في العمر تلعب دور الزوجة الأولى. وابنتها التي لم تدخل دنيا، ولم يأخذ وشها أحد - على الأقل نحن الذين نقول هذا - فتلعب دور الزوجة الثانية. البنت البندرية.

أمّا أنا فقد تركت القرية. وحسرتي ثلاث حسرات. الحسرة الأولى. أنني لم أستطع أن أحكي لأحد سري الخاص. ولا منشأ

الحكاية. ومن الـذي فكـر فيهـا أولا. فقـد كنـت راغبـاً دومـاً فـي إخـلاء ساحة أبي. والدفاع عنه. وإعادة صفحته بيضاء كما كانت.

والحسرة الثانية. أنني لم أعرف من أبي ولا من أخي. ماذا جرى بالضبط في الرحلتين. لم أجرؤ أبداً علـى سؤال أحدهمـا. وإن كـان مـا يقال في البلد كان يصلهما طراطيش كلام. ولـم نكـن نعلـق عليـه. مـن بعيد أو من قريب. إن كنت أنت قد علقت عليـه بكلمـة واحـدة. نكـون نحـن قـد تناولنـاه بـالتعليق. كنـا نسمع ونصمت، ونتعـامل مـع الأمـر باعتباره لا يخصنا. وإنما يدور حول أناس غيرنا. وكل هـذا خوفـا مـن أخي. الذي اصبح الكل يعمل له ألف حساب. بعد أن أصبـح تحـت يديـه جيش من الشباب الذين لا يعملون رغم تعليمهم العالي، ولم يجدوا غير شقيقي ينصاعون له. رغم أنه لا يحفظ الفاتحة. ولم يركعها أبدا لوجـه الله.

حسرتي الثالثة. تختلف عن الحسرتين، الأولى والثانية. فإن كانتا قد صغرتا مع مرور الأيام، وتضاءلتا مع جري الزمان. إلا أن الحسـرة الثالثة كانت أكبر. وتكبر. ولا تفارقني لحظة واحدة.

حسرتي الثالثـة. كـانت مـا جرى لأمـي بعد أن عرفت الحكايـة. ودخلت عيناها إلى محجريهما. وانسـحبت هـي إلـى داخلهـا، وأصبحت تطل من عينيها نظرة حيرى تائهة. لا تعرف إلى من توجهها.

أعترف أننـي ضبطـت أمـي أكثر مـن مـرة تكلـم نفسـها. وتعـاتب زوجها على ما فعله معها. وتبكي في صمت، وإن سألتها إن كان هناك شيء ما، يعكر صفوها. الذي لم يعد له وجـود. وعندمـا كـانت تمشـي. كنت ألحظ في مشيتها أن جسمها لم يعد ملكا لها. وأنه يتصرف بعيدا عنها. ولمحت ذات مساء رعشة جديدة في يدها اليمنـى. كـانت تحـاول إخفاءها، بأن تمسك يدها اليمنـى بيدهـا اليسرى. حتـى لا يلاحـظ ذلـك أحد.

نهنهة

مالت أمي إلى الصمت. خيل إليَّ أنها تحاول الاحتماء به. وكانت تسرح صامتة بالساعات. وهجرت فراش أبي. وأصبحت - لأول مرة - تنام في أمكنة أخرى. في وسط الدار شتاءً، أو فوق السطوح في الصيف. حيث أن حصيرته. تكون باتساع الدنيا نفسها.

كنت أتصور أن أمي لو تكلمت. وبدأ شلال الكلمات يهدر من فمها. ربما ترتاح. ولكنها اعتصمت بصمتها. ولم تخرج منه أبدا.

وعندما ارتميت في أحضانها. وأنا في طريقي إلى أول غربة في حياتي. جاءني إحساس، لا أعرف مصدره. أنني لن أرى أمي بعد هذه اللحظة أبدا.

مسجل وبعلم الوصول

.. أتاها علم الوصول فاحتارت. حاولت أن تتأكد من ساعي البريد أكثر من مرة. فهي لا تعرف القراءة ولا الكتابة. رغم النظارة الطبيَة التي لا تفارق وجهها. وأصبحت جزءا من الوجه مع مرور الوقت.

أكثر من مرة تستعيد الكلام. الاسم والعنوان. الاسم. هو نفسه اسم زوجها. ابراهيم فتح الله المعداوي. والاسم ثلاثي. وعندما تساءلت: وهل تأتي جوابات للميتين؟! قال لها ساعي البريد الذي كان شابا صغيرا عوده أخضر لا يزال. ربما كان الخطاب من التربي. أكمل متضاحكاً حاولي أن تتذكري، هل دفعت له أتعابه؟

تحسرت على ساعي البريد أيام زمان. فقد كان رجلا متقدما في العمر. يعرف الأصول ولا يسخر من أحزان الناس. كان يستحق أن تغني له فتحيه أحمد الأغنية الشهيرة عن البوسطجية الذين اشتكوا من كثرة المراسيل.

وان كانت الفكرة التي قالها البوسطجي الصبي. أو النكته التي لم تضحكها. ذلك أن زمن الضحك قد ولى وفات أوانه. هذه الفكرة قد استقرت في عقل بالها للحظات. ما المانع أن يكون الخطاب من التربي فعلا؟! مع أنها دفعت له، على داير المليم، كل ما له عليها.

سبعمائة يوم، وسبعمائة ليله مضت منذ الوفاه. التي تبدو الآن كما لو كانت كابوساً. وفي هذه الأيام وتلك الليالي، ذهبت إلى الترب

أكثر من مرة. والتربي الحاج ريان. هو أول من يقابلها. وآخر من يودعها. ولابد وأن تعطيه مما قسم الله له.

كانت تتفاءل به. وهل هناك من يتفاءل بأي شيء في القبور؟! عندما عادت بعد الدفن وذكرت اسمه. أمام امرأة متعلمه من جيرانها. قالت لها. إن الريان اسم لباب من أبواب الجنه. وهذه بشرى خير.

لم يكن الخطاب مع البوسطجي الصغير. الذي بدا لها كما لو كان قد عجز عن العثور على عمل. ولم يجد أمامه سوى هذه الشغلانه، فأمسك بها. قال لها ان الخطاب مسجل. لم تفهم معنى الكلمة. فقال مسوجر، وهو موجود في مكتب البريد. وكل ما معه عباره عن إيصال تأخذه وتذهب إلى مكتب البريد. وهناك تتسلم الخطاب.

أعطاها الايصال. واستعد للنزول على السلم. ويبدو أنه تذكر أنه عطشان. فطلب منها بق ماء. هي أرمله وحدانيه. هجالة لا عيِّل ولا تيِّل. وتسمع حكايات يشيب لها شعر الرأس، عما يفعله أبناء هذه الأيام. ومن يمنع الماء عن عطشان كافر.

ردت الباب بعد أن طلبت منه الوقوف حيث هو. حتى تحضر له الماء. ما إن شاهد القله تخرج من الباب الموارب أولا. وعود النعناع الأخضر يغطي بوزها. حتى تهلل وصفق، وصفر سعيدا. قال بصوت عال: ثلاجه شعبيّة. كان لنزول الماء في زوره صوت. وشاهدت تفاحة آدم وهي تصعد وتنزل في بلعومه. مسح فمه بيده، وهو يعيد لها القله قائلا: بيوت الطيبين عمار.

نزل سلمه. كانت قدمه اليمنى على السلمة التي تحت، عندما سألته: كان مكتوبا على الظرف المرحوم؟! سألها: وهل تفرق؟ قالت له: فرق السماء عن الأرض. المرحوم تعني أن الخطاب أرسل بعد وفاته. قال لها: الكدب خيبه، لم آخذ بالي.

كان سؤالها ما قبل الأخير عن الجهة التي أرسلت الخطاب،

والبوسطجي قال لها انه من المفروض أن يكون ذلك مكتوبا في الايصال الذي معها. وعندما تأكد أنه غير مدون. قال لها إن ذلك عدم اهتمام من زميله. لا يصل إلى حدود الاهمال. وسيلفت نظره لذلك عند كتابة الايصالات الأخرى.

أما سؤالها الأخير. فقد كان عن موعد الذهاب إلى مكتب البريد. قال لها، انها من المفروض أن تكون هناك قبل مرور ثلاثة أيام من الغد. وإلا أعيد الخطاب إلى الجهة المرسلة. ذلك أن بقاءه في المكتب بعد ذلك يعد مخالفه للوائح والتعليمات.

لم تسأله عن عنوان المكتب. فهو نفس المكتب الذي تتسلم منه المعاش يوم العاشر من كل شهر إفرنجي. تعرف الطريق إليه في الذهاب إليه والعوده منه. والمواصلات التي تركبها حتى تصل إليه ولكي تعود منه.

لو أن الخطاب المسوجر. جاء في وقت قريب من موعد المعاش. لكان المشوار واحداً. ولضربت عصفورين بحجر واحد. تذهب لتقبض المعاش وتتسلم الخطاب. المعاش كان موعده الأسبوع الماضي. وإن انتظرت إلى الشهر القادم، قد يعاد الخطاب إلى من أرسله. ومن أدراها. ربما كان فيه الخير الذي لا يتوقعه الإنسان.

في الصباح، توكلت على الله. نزلت من بيتها عند بحكه الشمس، ركبت الأتوبيس. نزلت في منتصف الطريق. ركبت أتوبيسا آخراً. تساءلت: ألم تكن تكفيها هذه البهدلة مره واحده في الشهر؟!

أخيراً، أخيراً، وصلت إلى مكتب البريد. كان معها الايصال الذي أخذته من البوسطجي بالأمس. احتفظت به جيداً. وضعته تحت نني العين. وعندما نامت. خبأته بين المخدة والفرش، وفي الطريق، كانت تتحسس الايصال لتتأكد من وجوده. كانت تخاف أن يسرق منها في الطريق. فهي لا تسمع في هذه الأيام، سوى عن حوادث النشل

وحكايات السرقه.

وهي من يومها بيتيّه. لم تكن تخرج أبدا في حياة المرحوم، وإن رأت الشارع أحيانا. فيكون ذلك معه. وترى الدنيا من خلال عينيه هو. مالها ولهذه الدنيا المزدحمه بالناس والأشياء والشرور والآثام.

كان بيتها يحميها، وكان المرحوم هو عكاز حياتها ووتد خيمة عمرها. وظلها وحاميها. ولكنه تخلى عنها ومات. مع أنها كانت تدعو، كلما سمعت قرآن الفجر أن يكون يومها قبل يومه. ولكنه رحل قبلها. تقول لنفسها هامسة: يا بخت من سكن هناك.

وصلت إلى المكتب متعبه. بعد يوم طويل من السفر. عرقها مرقها. كانت تسمع صوت لهاثها الذي كان واضحاً. على عتبة المكتب شاهدت شاباً منصرفاً منه. خاطر في عقل بالها البسيط قال لها، ربما كان هذا الفتى هو الذي عنده الخطاب.

ما إن قدمت الإيصال الذي معها إلى الولد الذي يجلس على البنك. حتى صفر مناديا على الشاب الذي قابلها. والذي كان يجري وراء أتوبيس يجري. ولسوء حظها أنه تمكن من القفز بداخله في لحظة خاطفه.

قبل أن تندب حظها العاثر. قال لها الفتى. إن زميله سيعود بعد ساعة. سألته: ومن أدراك أن الغائب يعود؟! قال لها: إن معه إذنا ساعة واحدة فقط. لا يمكنه أن يتأخر عنها. وإن الخطابات المسجلة عهدته. وقد أغلق درجه عليها. وأنها لو مدت خطوتها للحقت به. ولكن الأمر فرق معها أقل من الثانية. قالت باختصار: قلة البخت.

نظرت حولها. بحثت عن مكان تجلس فيه. امرأة ذكرها منظرها بشبابها الذي ولى، ولن يعود أبدا. عرضت عليها أن تصحبها إلى شقتها القريبة. حتى تمضي هذه الساعة. أوشكت أن توافقها. ولكنها تذكرت ما تسمعه من حكايات النصب والضحك على خلق الله.

فشكرتها رافضة. وكلما أصرت المرأة الصغيرة. وقالت إنها وحدانية وتعيش بمفردها. حتى كانت تصمم على الاعتذار وربما الرفض. قالت لنفسها، إن أولاد الحرام لم يتركوا لأولاد الحلال ولا مساحة في زنقة القبر. قبر العاصي طبعاً.

خلال الانتظار الذي طال أكثر من الساعة. لم تكن تنتظر بمفردها. كان هناك منتظرون آخرون. لم يكن ثمة مفر من الكلام مع الذين كانوا في المكتب. وقد لاحظت أنهم جميعا شبان ما عدا رجل متقدم في العمر. في سن آبائهم. كان من الواضح أنه رئيس هؤلاء الشبان الصغار في العمل. فلم يكن يشترك معهم في المزاح الثقيل الذي كانوا يقتلون به الوقت الذي بلا عمل. وكانت تغطي وجهه طبقة من الحزن.

رجل وحيد يجلس على مكتب من الصاج. تاه لونه الأصلي. كان الرجل مشغولاً بإعداد كوب من الشاي لنفسه في براد صغير. مستخدماً سخان كهربائي صغير. عندما عرف موضوعها. لم يزد أكثر من أنَه نصحها. أنه ما دام المرسل إليه متوفيا. فهو ينصحها بعدم تسلمه. ويعاد إلى الجهة التي أرسلته. قال باختصار: هذا هو الصواب.

كان معها من الأوراق ما يثبت أنها زوجة المتوفي. وهي تصرف معاشه من الناحية الأخرى من المكتب. ويمكنه أن يتأكد من ذلك بنفسه. كان الرجل متفهما لكل ما تقوله. ولكنه أوشك أن يتحايل عليها أن ترفض استلام الخطاب، وأن تتركه يعود إلى حيث أتى.

سألته، إن كان يعرف ما في الرسالة. انزعج الرجل. قال إنه لا يمكن أن يفكر - مجرد التفكير - في معرفة ما في الخطابات. ضحك متسائلا، يبدو أن الحاجة شاهدت ما كان يفعله شكري سرحان في فيلم البوسطجي. ولكن الحاجة نسيت أن الفيلم خيال في خيال. وعن نفسه، أكد الرجل، أنه لم يعمل في الصعيد. وفي حياته ما يشغله بعد الظهر حتى صباح اليوم التالي. وهي لم تدرك عن أي الأمور يتكلم. وهو قال

لها إنها حرة تتسلم الخطاب أو ترفض ذلك. هو فقط ينصحها. وإن كانت مصرة على استلام الخطاب سيسهل لها ذلك، وذنبها على جنبها.

عندما جاء الولد الذي قالوا لها إن الخطاب في عهدته. لم تعرفه. مع أنه هو نفسه الذي كان خارجا وهي داخلة. وجهوا له لوما على غيابه. لأن الحاجة منتظرة من لحظة مشيه من المكتب. والشاب كشفهم ببساطه. قال لهم إن الخطابات مرمية أمامهم. ولكنهم يخشون المسؤولية ويخافون من احتمال الخطأ. حتى لو كان في ذلك تسهيل لحياة الناس.

أخذ منها الإيصال. وبعد أن اعتذر لها عن التأخير. وعذره أنه لا يعرف أنها تنتظره. لمس حبة قلبها عندما ناداها مستخدما كلمة «يا أمي».

حرك قطعة حديد فوق البنك العالي. الذي يقفون حوله. كما لو كانوا مجموعة من الشبان يتسكعون على أحد النواصي لمعاكسة الفتيات.

تحت الحديد، كانت هناك مجموعة من الخطابات مربوطة بأستيك. عاين رقم الايصال على أرقام الخطابات. حتى أخرج خطابا أصفر اللون. صفر أحد الشباب، وقال إنه خطاب «ميري» قالت لنفسها: «من الحكومة» وإن لم تفكر في سؤالهم عن أي جهة في الحكومة هي التي أرسلت هذا الخطاب.

وضع الشاب الخطاب على الرخامة الموضوعة فوق البنك والمتسخة بالأحبار وبقايا الطعام وتفل الشاي. لم تعرف إن كانت هذه الفضلات من وجبة الإفطار أو الغداء. ورغم رائحة العفونة التي تفوح منها. إلا أن منظر بقايا الطعام حرك مصارين بطنها الخالية حتى من الهواء.

أحضر دفتراً، فتحه، وقلب صفحاته. حتى وصل إلى خانة معينة.

ونقل فيها الرقم. ثم عدل من وضع الدفتر أمامها لكي توقع. أخرجت الخاتم من محفظتها، وقدمته له. بحث عن الختامة بهدوء. وغمس فيها الختم. وختم أمام عبارة «استلمت الخطاب» التي كتبها بنفسه، دوّن تاريخ اليوم. وسألها عن اسمها الثلاثي. وكتبه تحت الختم.

سحب قطعة من القماش تاه لونها الأصلي. ومسح فيها الختم وأطراف أصابعه وسلمها الختم، بعد أن أصبح نظيفا من الحبر، ومعه الخطاب، أخذته من الشاب وسلمته لشاب آخر كان يقف بجوارها. قلبه باشمئزاز. وقال لها وكأنه يتف الكلمات من بين شفتيه: من المعاشات.

كان الظرف صغيرا. ومع هذا ما إن فتحه الشاب بعصبية قطعته إلى أكثر من قطعة. حتى اكتشفت أن الخطاب الداخلي كان عبارة عن ورقة طويلة. تعجبت كيف طبقت ووضعت داخل هذا الظرف الصغير.

تمتم بشفتيه كثيرا. قبل أن يقول لها. إن الخطاب عبارة عن صورة من خطاب أصلي مرسل إلى الإدارة التي تصرف لها المعاش. كانت تفهم ببطء شديد. وتحاول أن تستوعب بصعوبة. والولد يشرح، مطلوب وقف صرح معاشها من المرحوم زوجها الراحل. لأن هناك امرأة أخرى. قدمت شكوى، قالت فيها إنها كانت زوجة المرحوم زوجها: ابراهيم فتح الله المعداوي. وإنها أنجبت منه ثلاث بنات وولد. وتطالب بحقها في المعاش بأثر رجعي من تاريخ الوفاة. وستقدم ما يثبت صدق ما تقوله. ولهذا، يجب وقف المعاش إلى أن يتم البت في هذا الموضوع.

لم تكن قد فهمت المعنى كله بعد. عندما سألت عما يدخلها في هذا الموضوع. قال لها الولد. إن الخطاب عبارة عن صورة لها للعلم فقط. وأنها لم تذكر في الخطاب من قريب أو بعيد، ولكن المكتوب عليه، إلى المنتفعين بمعاش ابراهيم فتح الله المعداوي، والعنوان هو نفس عنوانها الذي تقيم فيه. سألها: هل هي مستفيدة من هذا المعاش؟

هزت رأسها يعنـي نعم. فأعـاد قولـه. إذن فالخطـاب لهـا. أعـاد القطـع الممزقة التي كانت تشكل المظروف لهـا. بعد أن اعتـذر عن تمزيقـه. وقال إنه لم يكن يعرف مسبقا أن الخطاب بهذه الأهميـة. ولكن العزاء أن الرسـالة نفسـها سليمة مائـة في المائــة. وان احتـاجت إلــى أيـة مستندات عن تاريخ ورود الخطاب إليها فهو تحت أمرها.

ما إن استقر المعنى في ذهنهـا. حتى نظـرت إلـى مكتـب الرجـل الكبير الذي أوشك أن يجبرها ألا تتسلم الخطاب. كان مكتبه خاليـا. ولا تدري متى انصرف. مع أنها كانت تتصور أنه أول مـن يحضـر. وآخـر من يمشي. ما دام هو مديره.

قالت للفراغ الذي تركه. إنها كانت متأكدة أنه كان يعـرف مـا فـي الخطاب. وندمت. ليتها ما تسلمت الخطاب لقـد تصـورت العكس. خيِّل إليها أنها لو لم تتسلم الخطاب لصرفت المعاش في الشهر القادم.

وإن كانت قد حاولت أن تعفي نفسها من أي مسـؤولية. مـن هـي حتى يكون تسلمها للخطاب شرطا للتنفيذ الحكومة لا يقدر عليهـا أحـد. إنها هي التي تمنع الماء والكهرباء والهواء عن شقتها. كـان المعـاش سيتوقف سواء ختمت أو لـم تختم. ولكنهـا عـادت تلوم نفسـها. ليتهـا استمعت إلـى مـا قالـه المدير. ولكنـه المقدر والمكتوب الـذي مامنـــه مهروب.

في الشارع. كان الوقت في لحظة زمتة الظهرية. الشمس والغبار والحرارة أعمدة. ولا توجد مساحة ظل ولو بحجم كف اليد. كانت تفكـر في الرحلة التي ستقوم بها الآن. ولكن بالعكس.

ابتعدت قليلا عن مكتب البريد. وقفت واستدارت ونظـرت إليـه. حاولت أن تملأ عينيها من منظره. لـم تكـن تعرف متـى ستحضر إليـه مرة أخرى. قالت لنفسها: يا عالم.

استدارت. سارت في طريقهـا. أمامهـا مشـوار يهد الحيـل. حتـى

تصل إلى بيتها. فكرت في حالها. حاولت أن تحسب المبلغ الذي في البيت. كم يكفي؟ تساءلت: هل تحضر في موعد صرف المعاش القادم؟ ربما صرفوه لها قبل الدخول في حكاية زوجته الأخرى وأبنائها.

حاولت أن تتخيل المرأة الأخرى، والأطفال. تعجبت من نفسها. فالرجل لم يتكلم عن حكاية الخلفة أبدا لدرجة أنها تصورت أنه ربما كان قد نسي هذه الحكاية وما فيها. كانت متأكدة في وقفتها المضنية أن زوجها أو الذي كان زوجها لم يقض الليل خارج فراشه بعيدا عن بيته أبداً.

جاء زوجها على بالها. همست له: يا خويا. قالت: المسامح كريم.

الدمعة الأولى

- البـنـت حِزيّـنـة
- موعد غرامـي
- مراسيــــــل

البنت حِزَيِّنة

.. منذ أن عملت عندنا البنت حِزَيِّنة شغَّاله. وهي حكاية الحكايات في بيتنا. وكانت قد أحضرتها لنا الست التي تُشغِّل البنات في البيوت. أو فلأقل من أجل الدقة والتحديد التي تشغِّل البنات الفقيرات في بيوت الأثرياء. مع أنني لا أعدَ من الأثرياء. ولكن تلك قصة أخرى. وهذه الست تلعب دور مكتب المخدم الذي لم يعد له وجود سوى في أفلام الستينات - أبيض وأسود فقط - رحمة الله عليها. ولكن تلك، لثاني مرة، قصة أخرى.

لحظة حضور البنت حزِّينه. لم ير أحد منا بطاقة شخصية لها. ولا شهادة ميلاد. أما حكاية بطاقة المدرسة أو أي أوراق أخرى في هذا الاتجاه فقد كان السؤال عنها فيه درجة من السخرية.

أحضرتها الست المِخَدَّمة. ولهفت سمسرتها. وقالت إن لم تعجبنا البنت حِزَيِّنة ستمرَ علينا بعد أسبوعين. ويمكن استبدالها ببنت أخرى فوراً. ذلك أن البنات - التي مثل هذه البنت - مثل الهم فوق القلب. هكذا قالت.

كنت قد قبلت وجود البنت حِزَيِّنة في بيتي بعد معركة مع زوجتي. لأنني - ولأسباب أخرى كثيرة. ليس هنا مجال الخوض فيها - أرفض أن يخدم إنسان إنساناً. كنت أقول أن هذه بقايا عبودية مضت. ولن تعود. ولكن مرض زوجتي ومجيء الأطفال جعلني أرضخ لزوجتي -

وما أكثر ما رضخت في أمور أخرى ليس هنا مجال الاستفاضة في شرحها.

كان نظام حضور شغالة مرة في الأسبوع. تأتي صباحا. وتنصرف ليلا. قد أوقعنا في العديد من المشاكل، التي كانت تتجدد مع يوم حضورها. وحتى ما بعد انصرافها. أيضا فقد كان حضور شغالة يوميا مستحيلا. لهذا وافقت وقبلت ونصف داخلي يرفض ما يقبله النصف الآخر.

حِزَينة هي التي حكت لنا حكايتها على فترات متباعدة وبمناسبة وبدون مناسبة. والذي لفت نظري لها ولحكايتها كان طريقة كلامها. فقد كانت تنحت تعبيرات ربما كنا نسمعها لأول مرة.

قالت أول ما قالت أنها «تَوَك متدليه» من فوق. وكان لابد من سؤال وجواب وأخذ وعطاء حتى نصل إلى معنى لتلك الجملة. «توك» كان معناها الآن. أو فورا. أما التدلي فهو النزول. وفوق كانت تقصد به الصعيد.

وليت الأمور كلَها كانت بنفس هذا القدر من السهولة التي أكتب بها الآن. فقد كنا نحاول إخفاء ضحكاتنا بقدر الإمكان. أو أن يضحك كل منا في عبه. أما أسرتها فتعيش في عزبة قريبة من الحي الذي نسكن فيه. تلك الأماكن التي قررنا أن نسميها عشوائية. حتى نريح ضمائرنا من ذلك البؤس غير الإنساني الذي يعيش فيه الناس في مثل هذه الأماكن. أمها ست صَعيديَة تعيش أوقاتها كلها في البيت. لم يرها الشارع ولم تره. منذ أن تدلت هي الأخرى من فوق. أليس في كلام هذه البنت عبقرية من نوع ما؟ ألا يقولون عن الصعيد في بعض اللغات: مصر العليا؟!

ولكن ماذا عن أخواتها؟! تاهت أكثر من مرة في عددهم، لكن من المؤكد في كل مرة أنها كانت البكرية. وأن والدها من كثرة غمه بعد

أن ولدت. أخذها وركب الوابور وطلع إلى خط الصعيد حتى يتركها هناك. فخلفة البنت من وجهة نظره مأساة. وتربية البنت في البندر البعيد عن الصعيد عار العار.

ولكن البنت حزِينة بعد أن أوشك خراط البنات أن يخرطها، شدّ له أهله أكثر من تلغراف. وكتبوا له أكثر من مكتوب. يطلبون منه الحضور من أجل استلام الأمانة وهي صاغ سليم. قبل أن يفطن الذئاب لوجودها. وربما يحدث ما لا يقدر أحد على دفعه أو منعه أو حتى الحيلولة دون وقوعه.

طلع أبوها لوحده. خلع البدلة الميِّزتة التي يسمونها العفريتة، وبعد أسبوع قضاه في التسكع بين البيوت في النجع والكلام عن أم الدنيا التي يعيش فيها «تقولشي ساكن على النيل». هكذا كانت تسخر من أبيها. ذلك أن النيل عندهم في الصعيد متاح للجميع. ويمكن لأي إنسان أن يستمتع به بدون أي متاعب ولا حتى تكلفة.

هي التي اكتشفت بعد حضورها من الصعيد إلى مصر «لا يعرف أحد كلمة القاهرة أبدا». إن والدها معَّار وباطه واسع. وأن الذي حكاه في البلد. إنما يراه عن بعد، لم يعشه أبداً، فكل ما شاهدته من محطة القطار إلى العزبة التي على شمال السما. كانت تمر به سريعا. أما العزبة فلم تكن قد دخلتها حنفية مياه توحدر بها. ولا كباية كهرباء واحدة.

كنا قد لاحظنا بعد حضور حِزَيِّنة إلينا، أنها كانت تتعامل بخوف وربما بخشونة مع كل ما تتعامل معه من منجزات الحضارة. وهذا التعبير الأخير من عندي أنا بالطبع. كانت إن سمعت صوت رنين التليفون تجري صارخة. تشير إليه وتقول: «اللي بيصرخ هادا». أما التليفزيون. هذا الصندوق؟! متعة المتع . كان هو كل عالمها في الليل. إن جلست أمامه لا تسمع من يناديها. ولا تستجيب، لأن جميع حواسها

تصبح موجهة إليه.

وعندما يطل على شاشته مسلسل الساعة السابعة مساء على القناة الأولى. تتمسمر على الأرض أمامه. مع أن حولها الكراسي والكنب. ولكنها تجلس تحت التلفزيون مباشرة على الأرض. ومن يشاهد انعكاس أضواء التلفزيون على عينيها، لابد وأن يلمح دموعاً تسح على خديها تأثراً بالمواقف الحزينة التي تراها. أو الموسيقى الشجية التي تتناهى إلى سمعها.

كنا نحاول إبعادها عن الجهاز. ذلك أن ثمة كلام طبي يقول. إن الاقتراب منه ضار بالعينين، ولكن مهما أبعدناها لابد وأن تزحف بهدوء وفي صمت، وبعيداً عن أعيننا حتى تستقر تحته مباشرة. وتنظر إليه كما لو كان شاشة سينما معلقة فوق رأسها.

لم ندرك أهمية التلفزيون في حياتها إلا عندما جاء والدها، ليحصل على أجرتها أول الشهر. ويتعرف علينا ويطمئن على بنته عندنا. وما إن قال لها. «لمي خلقاتك. أمك بدها تشوفك» حتّى نظر إلينا، يستأذن في أخذها يوما بليله فقط. من جانبنا سمحنا له بذلك. كل الذي اشترطناه عليه. أن يأخذها بيده. وأن يعيدها بيده أيضا. ألا يتركها تركب مواصلات عامة.

كان هذا ردنا عليه. ولكن البنت بدت كما لو كان ثعبانا قد لدغها، صرخت وقفزت في الهواء. ورفضت الذهاب معه. ورغم الاحترام المتوقع في سلوك بنت قادمة من الصعيد الجواني تجاه والدها. إلا أنها في هذه اللحظة بدت قادرة على ضرب والدها وإيذائه. بل والانتصار عليه. هدأها. قال إنه سيتركها. ولكن في الشهور القادمة. لابد من ترتيب الأمر بشكل آخر.

بدلا من حضور والدها إلينا، ليحصل على الأجرة التي قال لنا إنه يوفرها لها في حصالة. وأقسمت هي أنه كذاب في أصل وشه. وأنه

يأكل عرقها. كان واحد منا يأخذها في السيارة ويذهب بها إلى العزبة. وينتظرها في السيارة، حتى تروح إلى أمها واخوتها. تقضي معهم دقائق قليلة وتعود. لحظة ذهابها كانت تبدو مثل الإنسان المفقود. أما عند عودتها فهي مولودة في هذه البرهة فقط. تمشي إلى بيت أهلها مترددة، خائفة. تخطو ربع خطوة إلى الأمام وتتوقف لكن تنظر وراءها أكثر من مرة. ربما لتتأكد أن السيارة ومن فيها مازال في انتظارها. وعند عودتها توشك أن تطير في الجو. ويتحول الحزن إلى حبور. والاكفهرار إلى سعادة. ويشرق وجهها. لأول مرة منذ بداية هذه الرحلة الشهرية.

وحزّينة لم تكن حزينة. أشاعت البهجة في البيت. بطريقة كلامها. وبدائية تصرفاتها. وطريقة تعاملها مع كل الأشياء التي في البيت. ابتداء من مفتاح النور. حتى حنفية المياه. إلى الخلاط والبوتاجاز والغسالة. وحزّينة لم تكن جميلة. وتبدو إنسانا لم يجد من يتعهده بالرعاية والعناية. وقد استغرقت زوجتي وقتا ليس بالقصير حتى علمتها طريقة استخدام المرحاض. ووقتا أطول وعذابا أكثر حتى أقنعتها بفكرة الاستحمام الذي قبلت فقط، القيام به مرة وحيدة في الأسبوع. وقالت عنا نحن الذين نستحم أكثر من مرة في اليوم، أننا مجانين. أما فرشاة الأسنان فتلك حكاية أخرى.

كانت تتكلم مع زوجتي عندما تكونان في المطبخ عن أن والدها وأمها واخوتها يكرهونها. وأنها لا تحبهم. ولا تريد ترك بيتنا مهما كانت الأسباب. هذا ما كانت متأكدة منه، أما الدلائل عليه فلا تعرفها.

لكن مشكلة المشاكل كانت تتمثل في عمرها. أبوها في المرة الوحيدة التي حضر فيها عندنا كان مصراً على أن يعاملها باعتبارها طفلة صغيرة. وإن كانت زوجتي قد أكدت لي أن البنت قد بلغت حتى قبل حضورها إلينا. أما قصر قامتها وعدم بروز أنوثتها فربما يعودان

إلى ظروف نشأتها في الصعيد الجواني، وقد دهشت عندما أكدت لي زوجتي أن البنت لم تكن تعرف هذه الأمور عندما جاءت إلينا. وأن الكلام معها حولها كان من أصعب الأمور حتى بين امرأة وبينها.

كنا نرسلها في بعض الأحيان - القليلة إلى حد الندرة - إلى المشاوير القريبة جدا من البيت. إلى البقال أو اللبان أو المكوجي. وكنا - أكرر - نفعل هذا في أضيق الحدود. وان نكون يقظين لمثل هذه المشاوير. وعندما لاحظنا أن البنت حِزّينة بدأت تهتم بمظهرها قبل النزول، وأنها تقف أمام المرآة طويلا، وتحاول أن تبدو جميلة، وتطلب من ابنتي توكه شعر مرة. وفستانا مرة ثانية. قررنا ألا ترى الشارع إلا معنا مهما كانت الظروف.

إلى أن كان يوم.

نزلت زوجتي من أجل شراء ما تحتاجه من الأسواق. ولأن عملية الشراء أصبحت متشابكة ومعقدة. والوقت يطير في الأسواق مثل الكحول. فقد أرسلتها زوجتي إلى محل علاف تشتري منه فول مدشوش وعدس أصفر وعدس بجبته. عندما كانت هي - أي زوجتي - تشتري من البقال، الذي اسمه في هذه الأيام «السوبر ماركت» الجبن بأنواعه المختلفة والصابون والشاي والبسطرمة واللانشون.

لم تلاحظ زوجتي أن البنت الحزّينة قد غابت عند العلاف وأنها بعد أن عادت من عنده، طلبت من زوجتي أن تعاود الذهاب إليه مرة أخرى. لأنها نسيت عنده الباقي. وفي المرة الثانية غابت أكثر من المرة الأولى. ولم تدرك زوجتي أن البنت تعمدت البقاء عند العلاف وقتا طويلا في المرتين. بل ظلت في المرة الثانية أكثر من المرة الأولى.

عادتا إلى البيت. كانت البنت الحزينة ساهمة وحزينة لأول مرة. وهما في طريق العودة. وفي البيت أكثرت من السرحان. وقد فسرنا

الأمر في البداية على أن الأسواق أصابتها بحالة من الدهشة. مع أنها ليست المرة الأولى التي تنزل فيها إلى هذه الأسواق. فذلك المشوار تقوم به زوجتي مرة كل أسبوع والمشوار الواحد يستغرق أكثر من خمس ساعات بين هذا المحل وذاك. وقد يتطلب التنقل بين أكثر من سوق واحد.

هل تعسيلة القيالة هي السبب؟! ربما، أم أن هذا الهدوء النهاري. عندما تأخذ الشقة إجازة من الصخب والضجيج هو الذي دفعها إلى ذلك؟! جائز. ولكن الذي جرى عندما أوينا جميعا إلى أسرّتنا بعد الغداء في ظهر ذلك اليوم الحار. وجدت أن ابنتي قامت من نومها ملهوفة تريد أن تشرب ماء. اتجهت إلى الثلاجة. وهي في طريق العودة شاهدت ما لم تصدقه. كانت البنت حِزّينة تجلس في الصالة بمفردها. وتمسك سماعة التليفون بيدها. وتضعها على أذنها. بحالة من الألفة لم تبدها من قبل إزاء هذا الجهاز الغريب أو الذي كان غريبا بالنسبة لها. وأكثر من هذا. أنها تتكلم مثل الراديو. وبكلمات بندرية. كأنها استبدلت اللسان الصعيدي الذي كان في بقها. وكان يميزها عن الآخرين بلسان بندري فصيح.

وبين الكلمة والأخرى. ضحكة مجلجلة يهتز لها جسمها كله. تصورت ابنتي - في البداية - أن البنت تقلدها. وأنها ربما كانت تتكلم على الفاضي. وأنه لا يوجد على الناحية الأخرى من يتكلم. ولكن البنت حِزّينة، كانت تتكلم. ثم تنصت، ثم تعاود الكلام بعد الإنصات. إذن المسألة جد. خاصة وأننا قد تعودنا بعد الغداء وقبل النوم، أن تقف البنت حِزّينة في المطبخ لبعض الوقت من أجل غسل الصحون، صحون الغداء. ثم تنام بعد ذلك في نفس غرفة ابنتي على الكنبة المواجهة لسرير ابنتي. وكان إصراري على ذلك لا نقاش فيه. ورفضي أن تنام في المطبخ مسألة مبدأ، ولكن تلك حكاية ربما كانت بعيدة عن حكايتنا.

وكان حرص البنت حزّينة على أن تنام خلال تعسيلة القيالة أكثر منا نحن. حتى تقضي السهرة ما بين القيام ببعض واجباتها الليلية. وأن تمسك برامج التلفزيون من أذان المغرب، وحتى والسلام ختام. هكذا تجري الأمور كل يوم. فلِمَ لم تنم البنت حزّينة في يومنا هذا؟ بعد أن انتهت من غسل صحون وأطباق وأكواب الغداء؟

المسألة جد إذن. وحدث ما كنا نخشاه أو نتوقعه. ونحاول تفاديه. المهم تسحبت ابنتي على أطراف أصابعها إلى حيث تنام أمها. ووشوشتها وأخبرتها بالمصيبة التي تجري في الصالة. وزوجتي لم تكذّب خبراً. وقامت فزعة من نومها على هذا الذي سمعته. قامتا معاً. - زوجتي وابنتي - بتجريدة على البنت التي كانت في الصالة مازالت تكركر بالضحكات في التليفون. وقد نامت على جنبها الأيمن. والتليفون في حضنها. مثلما تشاهد الممثلات يفعلن في المسلسلات.

ما إن شاهدت البنت حزّينة زوجتي وابنتي تدخلان الصالة من جهة غرفة النوم حتى جفت الضحكة على شفتيها، وماتت الكلمات على لسانها. واعتدلت في جلستها. وقالت - قبل أن تزرع السماعة: «النمرة غلط يا جدع انت». فتعجبت - عندما حكوا لي ما جرى - من كل هذا الذكاء الذي تفجر في البنت. ونحن لا ندري كيف ولا متى تم هذا.

الذي لم تحسب حسابه البنت الحزينة هو حكاية التكنولوجيا، التي لا تعرف عنها أي شيء. فقد هجمت ابنتي على التليفون. وتمكنت من إظهار أنها هي - أي البنت الحزينة - هي التي طلبت الرقم. وكان من السهل إظهار الرقم المطلوب نفسه. لأنه يظل مسجلا حتى تطلب غيره. وحتى إن طلبت رقما بعده. يمكنك استحضاره بسهولة من ذاكرة التليفون.

لم تكتف ابنتي بهذا. بل أظهرت تفوقا لم نتصوره عندما أعادت

طلب الرقم. الذي كانت تتكلم فيه المحروسة منذ لحظات. وعندما رد المطلوب. كان من السهل معرفة أنه تليفون محل العلافة. وأن صبي العلاف هو الذي كان يتكلم معها. لأنه ما إن رفع السماع حتى استأنف ما كانا فيه من كلام حب وغزل. وقبل أن يسمع أي صوت ناداها باسمها مسبوقا بكلمة يا حبيبتي.

صحوت من نومي على ثورة زوجتي وزعيقها بعلو الصوت. والذي لا يحدث إلا عندما تدور معركة مع الجيران. البنت الحزينة تنكر. وزوجتي تصرخ فيها. وابنتي تقول إنَه لابد من طردها من البيت الآن وفورا. لأن البنت فجرت. والذي كان كان. ولا حل سوى عودتها لأهلها قبل أن يأتي الليل.

وقبل أن أخرج من غرفة النوم حتى أتبين الأمر، كانت زوجتي قد حسمت الأمر. طلبت من البنت حزِّينة أن تلبس هدومها. وأن تجمع هلاهيلها. كانت البنت تسميها «خلقاتها». حتى تذهب بها - الآن وفورا - إلى أهلها.

دخلت زوجتي لكي تلبس. وابنتي أصرت على الذهاب مع أمها حتى لا تتركها تواجه هذا الموقف الصعب بمفردها. وإن كان ما يحركها هو نوع من الفضول، ذلك أن ما يجري أمامنا. لم يحدث في بيتنا من قبل. كان في الأمر قدر من الإثارة لم نألفه.

دخلن هن الثلاثة من أجل اللبس. سألت زوجتي عن الحكاية. فقالت لي. إنها ستحكي لي بعد أن تعود من تسليم الـ... «وقالت كلمة بذيئة». لأهلها. قبل أن تلبِّسنا مصيبة لا نعرف كيف نخرج منها. ونجد أنفسنا في سين وجيم. ومن يدري إلى أين يمكن أن تصل الأمور بعد ذلك.

أثناء ذلك فوجئت بصراخ ابنتي منبهها لنا أن البنت حزِّينة قد طفشت. غافلتها وغافلتنا وفتحت باب الشقة وهربت. الأمر إذن ليس

هيافة حريم. ولا وقت فراغ لا يعرفن كيف يقضينه. خرجت مسرعاً. ناديت على البنت التي لم أسمع سوى صوت أقدامها على سلم العمارة. جريت إلى الشرفة. وطلبت من البواب الإمساك بها. وما إن شاهدت البنت وهي تضرب البواب. وعدم قدرته على الإمساك بها. ثم جريها باتجاه الشارع العمومي حتى أدركت أن في الأمر شيئا ما أخطر من مجرد المشاحنة والصراخ الذي استمعت إليه. لحظة صحوي من النوم.

كان شارعنا خاليا في هذا الوقت من النهار. ولذلك لم أطلب من البواب الاستعانة بزملائه من البوابين من أجل الإمساك بها. والبواب نفسه لم يكن يحب هذه البنت. لأنه من بحري. وحدث أن نصبت عليه امرأة صعيدية في صدر شبابه. وضحكت عليه باللسان الصعيدي. وجعلته يرى النجوم في عزل الظهر. ويبدو أن هذا هو سبب تراخيه في الإمساك بها. وإن كان قد قال لي فيما بعد إنّ صحة البنت تهدّ جبال. وأنها عفية. وأنها قادرة على أن تصرع مائة رجل. تعجبت وأنا أسمعه. فتلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها رجلا يقول هذا الكلام عن بنت مفعوصة في سن بناته.

تناقشنا في الأمر. المسألة تحولت إلى مشكلة. وكان لابد من الذهاب إلى والدها في التو واللحظة. وإبلاغه، وإن لم نجده، قلت لا مفر من تحرير محضر في القسم بما جرى. فالأمر يتعلق بمصير بنت غشيمة ربما تتوه الآن في دروب المدينة التي لا ترحم أحداً.

وهكذا انهار برنامج كل منا من أجل هذا المساء. كنت قد سألت البنت حزِّينة عن عمل والدها. قالت لي إنّه فواعلي. أعدت السؤال. فقالت: سرِّيح. يعمل أي شغلانه تطلب منه. ليس له عمل ثابت، حسب التساهيل. قالت البنت إنّ والدها يعمل يوما ويجلس أمام البيت أسبوعا في انتظار عمل آخر.

ذهبنا نحن الثلاثة إلى العزبة. كانت زوجتي تعرف الطريق. فهي

تحضر إلى هنا أول كل شهر. قادتني أولا إلى «سوق الرجالة» حيث يجلس والد البنت كل صباح مع مئات – وربما آلاف غيره – في انتظار أن يجد عملا. سألنا عنه. صاحبة نصبة الشاي والمعسل والتي تقدم المشاريب للرجالة شككاً حتى يجد الرجل عملا فيسدد ما عليه. قالت أنه لم يحضر إلى السوق منذ ثلاثة أيام. إذن لا عمل في هذه الأيام. توجهنا إلى البيت. من الصعب القول أن الذي يصفونه بأنه شارع يعد شارعاً. وأن البيوت بيوت. وأن الناس ناس.

الغريب أن المكان. الذي يسمونه العزبة. قريب جدا من الحي الجميل والهادئ الذي نعيش فيه. أشياء مكومة هنا في العزبة ومكدسة. عالم من التراب والذباب والروائح الكريهة. والناس تتعامل بألفة مع هذه الأشياء. التي تبدو لغريب مثلي جزءا من عالم سفلي يطاردك بما فيه.

حتى الآن لا أعرف كيف تمكنت السيارة من الصعود والهبوط. والخروج من الحفر. والعبور فوق البرك. والمشي في حواري ضيقة. تكاد الحيطان أن تلامسها. من الجانبين، إلى أن وصلنا. لم أنتبه سوى وزوجتي تقول لي: هنا.

أشارت إلى فتى صغير. يجلس أمام باب لا تعرف باب ماذا هو. قالت أنه والد المضروبة. وهكذا أصبحت الحزينة هي المضروبة. دهشت، كان حجمه قريبا من حجمها. وبعد أن تمعنت فيه. بدأت أرى أوجه شبه كثيرة بينه وبين البنت الحزينة. كانت أمامه بركة مجاري. وحول وجهه تراب وغبار وذباب. والتراب عالق في الجو.

كان يجلس فوق حجر أمام الباب. وبيده كوب شاي. وقد ارتدى الجلباب الصعيدي الأبيض. واضعا ساقا على ساق. وبين أصابعه سيجارة. انتهى لتوه من إشعالها. ويبدو أن هذه جلسة المزاج اليومي بالنسبة له. والذي وراءه. وما تصورنا أو خيل لنا أنه باب. لم يكن

باباً. ولكن ستارة من القماش. كانت البنت حزَينة قد قالت لنا عن الداخل أنه مساحة صغيرة. أصغر من صالة شقتنا أو حتى شرفتها. وهي كل البيت. الذي لا توجد فيه مياه ولا نور. يستخدمونها في كل أمور حياتهم. المعيشة والأكل والشرب والطبخ والنوم. أما قضاء الحاجة فيتم في العلوايه، وهي مكان مرتفع يتوسط العزبة.

قالت له زوجتي: البنت هربت. ودون أن يفاجأ أو تبدو عليه الدهشة. قال وهو يمصمص تفل الشاي الذي كان ثقيلا. لأنه ترك أثره على زجاج الكوب: كيف؟! بدأت زوجتي تحكي الحكاية من أولها. نبهتها إلى أننا في الشارع. والناس حولنا من كل جانب، وأن هذا لا يصح ولا يجوز. بعد أن عزم علينا. سأل زوجتي: وهيه وين ها الحين؟! قالت إنها تعرف مكانها. قام من مكانه بتثاقل. وقال إنه سيركب الزحافة ويأتي معنا. لكي نذهب إليها. حتى يواجه الجمل والجمال. والزحافة التي قال إنه سيركبها، كانت عبارة عن شبشب بلاستيك مقطوع من منتصفه.

لم نشاهد زوجته. التي كنت أتوقع أن تحدث مشكلة كبيرة عندما تسمع مثل هذا الكلام عن ابنتها. ولم نر أخت حزِينة الوحيدة. ولا اخوتها الصبيان الثلاثة الذين جاؤوا فوق رؤوس بعضهم. فقد دخل الرجل البيت، أو ما يسمى بيتا وخرج بمفرده.

ركب معنا، كان من المستحيل الاستدارة بالسيارة. وهكذا أكملنا طريقنا. ودرنا دورة كاملة. وهو يرشدني إلى الطريق. يقول لي: يمينك، شمالك. على ايديك. اتدلى بالراحة. شاهدنا ونحن نلف مصانع طوب وأسمنت. ودكاناً لبيع المياه بالصفيحة. تحضرها قناطيس. لا تعرف من أين؟ والناس تقف في انتظار حضور القنطاس. وفي يد كل بنت أو صبي أو امرأة ثمن الصفيحة. وفوق الرأس أو في اليد الأخرى، الجركن البلاستيك. الذي ستملؤه بالمياه لكي تعود به إلى

البيت من أجل عمل الشاي والطبخ فقط.

فكرت أن أسأله عن الاستخدامات الأخرى للمياه. ولكني فضلت الصمت. عزم عليَّ بسيجارة قائلا: «عفر دي». وعندما قلت له أنني لا أدخن. نظر إلي باحتقار. ومصمص شفتيه. وهمس بكلام لم أسمعه. ربما كان تعجبه من كيفية أن أكون رجلا ولا أدخن.

طوال الطريق. لم نتبادل أي كلمة. مع أنني كنت أرغب في سؤاله عن حقيقة عمره. ومتى أنجب هذه البنت الكبيرة. فقد كان صغيرا جدا عن أن يكون أبا. فضلا عن أن تكون له بنت في عمر حزَينة. حتى لو كان قد تزوج وهو صبي. ربما كانت زوجته التي لم نرها. في مثل عمره. تذكرت أن البنت حزَينة. قالت لنا. أن لها أربعة أشقاء. بنت وثلاثة أولاد. تعجبت من ذلك. وإن كان الموقف لا يحتمل مزيدا من الكلام في مثل هذه الأمور.

ووالد البنت حزَينة، كان مشغولا عنا بحاله من الزهو أنه يركب سيارة. كان ينظر طويلا لكل من نمر عليه. ويلقي بالسلام والتحايا بمناسبة وبدون مناسبة. ولحظة مرورنا على سوق الرجالة. طلب مني أن أتوقف صائحا: «على إيدك يا أسطى». ونظر من نافذة السيارة. وتساءل إن كان هناك شغل. فقالوا إن الحال مثلما تركه. وعندما سألوه إن كنا زبائن نبحث عن رجالة. فضلنا الذهاب إليه مباشرة. قال لهم: «الجماعة بلدينا». وأشار لنا.

عندما وصلنا إلى محل العلافة. كانت البنت حزَينة تقف في مدخل المحل. وتمسك شبشبها بيدها. وتلهث. ويبدو أنها طست المشوار سائرة على قدميها. كانت البنت الحزينة سعيدة. يطل الفرح من عينيها الواسعتين، لأول مرة. أما الولد، صبي العلاف. فقد كان مرعوبا. تتعارك الانفعالات على وجهه عندما شاهدتنا البنت حزينة. لم تجر هذه المرة. ولكنها احتمت بالصبي. وحاولت دخول المحل. ولكنه منعها.

قال لنا الصبي، إنه لا يعرفها. ولم يطلب منها الحضور وهي التي رمت جثتها عليه. ولم يكن يعرف أهلها حتى يعيدها إليهم بعد أن يقفل المحل. لأن المعلم صاحب المحل. مسافر اليوم. وتركه بمفرده لأول مرة. نظرت البنت الحزينة إلى الصبي. بصقت على وجهه. والبصقة كانت شديدة الوضوح. شاهدتها وأنا أجلس في السيارة. وقبل أن تترك الصبي. كان والدها قد أمسك بها. وجرجرها إلى السيارة. وهي تحاول الهروب. ركبت السيارة وهي تصيح في الصبي: اخص عليك عيل مش راجل. ابتسمت رغم جهامة الموقف. فقد كانت تنطق الراء لاما. ولم ينسها غضبها هذه العادة. أو اللازمة التي اشتهرت بها في بيتنا. شدها أبوها من شعرها. وأجلسها بجواره. وما إن تحركنا. وقبل أن يتكلم أحد. كان قد لطمها على وجهها. وصاح فيها «عمل فيكي ايه يا بنت الـ...؟»

لم أسترح لضراوته التي استخدمها. وقلت. الأمر كله لن يستغرق دقائق معدودة. وأوصلهما إلى العزبة. ويذهب كل منا لحال سبيله ولكنه فجأة، أخرج مطواة من جيبه وفتحها. ورفعها في جو السيارة، يريد أن يضربها بها. أوقفت السيارة بكل قوتي. وصرخت فيه، منعته في اللحظة الأخيرة. وطلبت منه النزول مع ابنته من السيارة. نزل وهو يقول لي. لماذا أغضب من رجل يحاول أن يغسل عاره بيديه؟!

مشى بها. وهي تتشبث بالأرض. وهو يشدها شداً. وإن كانت قوتها قد تبخرت أمام قوة والدها. الذي لم أصدق أنه أبوها. كان أقرب لشقيق لها. لحقت بهما. تصورت أن تركي لهما هنا خطأ. من أدراني ماذا سيفعل هذا المجنون مع البنت؟ قد يقتلها. ونحن حتى الآن لم نسلمها له.

توقفت. طلبت منه أن يركب معنا في السيارة هو وابنته. قلت كلمة واحدة: سأوصلكما. بعد أن ركبا كنت قد اتخذت قراري. سأسلم

البنت حزينة لوالدها ولكن في القسم وبمحضر. والتسليم عن طريق الشرطة قد يمنعه من إيذائها.

كنت قد قررت. ألا تعود عندنا. لا يضمن أحد تطورات المستقبل بالنسبة لها. وإن كانت البنت قد بدأت الصياح والبكاء. تطلب الذهاب معنا بعيدا عن أبيها. على باب القسم. رفض الدخول. بحجة أنه لا توجد معه أوراق. وإن كان قد اتضح أن معه بطاقة عائلية. ولكن عنوانه المثبت بها. على الصعيد وليس على العزبة.

أوشكت أن أسأله. وهل في العزبة عناوين؟ قال أنه يخاف أن يعيده الضابط الذي في القسم إلى بلده لأنه لا يمسك عملا. ولا عنوان له في مصر. وعندما ضمنت له ألا يحدث هذا. دخل معي مضطرا ومن باب الخوف لأن العسكري الذي كان يحرس القسم. كان يسمع هذا الكلام.

في القسم. حكيت القصة باختصار للضابط النوبتجي. وقلت له. إنني أريد تسليم البنت لأبيها بمحضر. فتح الضابط المحضر. وسأل والد البنت عن اسمها. فقال له: جميلة. نظر الضابط إلى البنت. وقال أن الأسامي في مصر ليس عليها جمرك. وتعجبنا ونظرنا إلى بعضنا لأنها كانت المرة الأولى. التي نسمع فيها هذا الاسم. سألها عن سنها. قالت إنها لا تعرف. واشارت إلى أبيها. الذي قال «ستاشر سنة».

استغربنا أكثر. كنا نتعرف على حزَّينة أخرى غير التي كانت عندنا. وعندما سألها الضابط عما جرى. قالت أن كل ما حدث. أن الولد صبي العلاف. قال لها إنها بنت زينة. وكان هو الوحيد في الدنيا الذي أحبها. وأنها لن تتركه أبدا.

وقعت أنا على المحضر. وبصم والدها. كان توقيعي بتسليمها. أما بصمة والدها فكانت بتسلمها. تلك البنت التي كان اسمها عندنا حزينة. وإن كان اسمها الحقيقي جميلة. أوصلتهما حتى مدخل العزبة.

الدمعة الأولى

كان آخر ما قالته البنت، وبعد أن نزلت على الأرض الموحلة بالطين. وأبوها يمسك بها من يدها:

- لو طفشت حاجي عندكو من تاني.

موعد غرامي

.. كنت أخرج كارنيه الكلية من حقيبتي. وأنا في عجلة من أمري. فقد وصلت متأخرة في هذا اليوم. وكنا في الربيع حيث مداخل الجامعة مغطاة بالورق الأخضر والحديقة الواسعة تعلن عن نفسها بالألوان الطبيعية.

كان المكان يبتسم لي. وفي الجو كان ثمة شعر من الدخان والمرايا، ونسمة هواء عذبة في هذا الصباح الجميل، تداعب شعري. وصوت الهواء الذي يعبث بورق الشجر. يتلاقى مع وشيش مياه النافورة التي تصعد إلى قلب السماء، ثم ترتد إلى الأرض. تنشر رائحة البحر في المكان كله. وكانت السماء شديدة الزرقة. وكان الضوء يتذبذب في الهواء الذي كان مصقولا كالزجاج.

يبدو أن عدوى الجو وبهجة اليوم قد أثرت في الضابط، لأنه بدلا من النظر إلى صورتي المثبتة في الكارنيه، والتحديق في وجهي. قبل أن يسمح لي بالدخول، نحى الكارنيه جانبا. ومد لي يده. التي كانت ممسكة بيد شاب يقف في ظله، كأنه يحتمي به من حرارة شمس لا وجود لها.

أمسك يدي بيسراه. ويد الشاب بيمناه. وشبكهما معا. قائلا:

– خدي هذا معك.

لم أستوعب الأمر في البداية. تصورت أن مزاح الضابط في هذا

الدمعة الأولى

الصباح الجميل قد جاوز حدوده.

ولكنني عندما نظرت لأول مرة إلى الشاب الذي أمسك بيدي بقوة، كأنه غريق: وأنا القشة التي تمثل له الإنقاذ الأخير. اكتشفت أنه بلا عينين. ثمة حفرتان مكان عينيه. لونهما رمادي.

مشينا معا..

كانت ملابسه من النوع الرخيص، غير متناسقة، وليست نظيفة. ويبدو كما لو كان نائما بها. شعرت بخجل وتمنيت ألا تراني أي بنت من بنات كليتي. حتى لا يعايرنني بهذا الذي أمسك به بيدي. وأجدني مضطرة إلى شرح الأمر لهن. واحدة واحدة، لابد وأنه طالب أتى من الفلاحين هذا الصباح. ربما كان يعيش وحيدا. ولا يملك سوى هذه الملابس التي يرتديها.

فوجئت به يسبقني. لدرجة أنني تصورت أنه يجري، همست لنفسي. ربما كان يرى. رغم وجود الحفرتين الظاهرتين في وجهه. من المؤكد أنه لم ير نفسه أبدا. فكرت في خلع نظارتي الغاليه جدا. والتي اشتريتها بمبلغ تبرم منه والدي أكثر من مرة. وكان إصراري عليها يعكس نوعا من الاستعداد للصيف القادم.

فكرت أن أهديها له. مع أنها نظارة حريمي وهو ولد. سبقني. آلمت يدي مسكة يده. التي كانت أقرب إلى القبض عليَّ. حاولت أن أجاريه في سرعته ولكن حذائي الجديد بكعبه العالي جدا. حال دون ذلك.

وقبل أن أنبهه إلى ضرورة أن يبطئ من سيره، سألني وهو يدير رأسه ناحية اليمين وناحية الشمال كأنه يجر القلب وراء الكلمات:

– ما اسمك؟

شممت رائحة نفسه غير المريحة عندما استدار بوجهه ناحيتي:

– رضاب.

الدمعة الأولى

قال:

- الله.. الله .

عاد يسألني بكلمات لاهثة:

- من أي كلية؟
- الآداب.
- وفي أي سنة؟
- الأولى.
- وفي أي قسم؟
- اللغة العربية.

فكرت أن أسأله، ولو حتى عن الكلية التي سأوصله إليها. ولكنه قال لي. وقد بدأت قبضة يده تخف علي يدي. وحركة اندفاعه إلى الأمام هدأت.

- أما أنا ففي كلية الحقوق.
- حمدت الله في سرّي. لأن كليته تجاور كليتي سألته وقد أصبحنا على مشارف الكليتين:
- أي مدرج تريد الذهاب إليه؟

ضحك فظهرت تفتفه على وجهه. قال لي:

- لا مدرجات اليوم.

سألته:

- إلى أين تريد الذهاب إذن؟!

توقف وقال:

- الكافتريا.

لم أشأ أن أسأله عن السبب في ذلك. ولكنه قال وقد لانت ملامح وجهه. وأصبحت يده وسادة ناعمة حول يدي:

- عندي موعد غرامي.

ونحن نقترب من الكافيتريا. التي لم يكن يجلس فيها أحد. في ذلك الوقت المبكر. قال وهو يوشك أن يغني:

- ألا تجلسي؟!

ثم أكمل بعد قليل:

- حبيبة الفؤاد هنا.

قلت له:

- المكان خال تماماً.

بانت مقدمات خيبة الأمل على وجهه. لو كانت له عينان. لشاهدت الآن مشروع دمعة. وأصابعه تحركت حول يدي بعصبية. قلت لنفسي، إنه يتعامل معي. ولكن بأنامل يديه. يعزف بهما ما يريد قوله لي.

قال وقد انطفأ حماسه:

- إنها تحضر متأخرة دائما.

قدته بهدوء. الآن لم يعد يسبقني. وصلت إلى الكافيتريا. سألته إن كان يفضل الجلوس في مكان معين؟ هل يريد أن يأخذ حمام شمس؟ أم يجلس تحت مظلة؟ أو تحت شجرة؟

قال لي:

- كل الأمكنة سيان.

وأنا أجلسه على كرسي أمام منضدة. وبالقرب من شجرة. كنت أشم رائحة ورقها الأخضر. وكانت تتناهى إلي من حوض الزهور. روائح تزيد جمال اليوم بهاء.

قال كمن يحدث نفسه:

- المهم أن تحضر.

بعد أن جلس مكانه. سألته:

- أنادي لك الجرسون؟!

لوح بيده في يأس:

- أمامي وقت طويل.

قبل أن أنصرف فوجئت به. يطلب مني الجلوس. قبل أن أقول إنني جئت متأخرة هذا اليوم، وأريد الانصراف بأسرع ما يمكن. قال إن لديه كلاما يريد أن يقوله لي.

جلست. وبدأ يتكلم. قال إن الكفيف لا يحب الكلام عن البصر. والأصم لا يتحدث عن السمع. ومع هذا فإن عنده الجرأة. لكي يقول لي. إن الله سبحانه وتعالى - رفع رأسه في هذه اللحظة إلى أعلى - سلبه نعمة البصر. ولكنه أنعم عليه بنعمة البصيرة.

توقف تماما وهو يقول:

- والفارق بين البصر والبصيرة. مثل الفارق بين الأرض والسماء.

احترت ماذا أقول. بدا لي الصمت أكثر أمانا من أي تصرف آخر يمكن أن أقدم عليه. لوحت له بيدي وأنا أمشي. اكتشفت أنه لن يرى تلويحة اليد فقلت له:

- سلام.

لم يرد عليَّ. كان يبدأ زمن الانتظار الذي لا يعرف كم سيطول.

اتجهت إلى المدرج المخصص لمحاضرتي. وفي ذهني تساؤل: هل حبيبة القلب كفيفة مثله؟ أم أنها ترى مثلنا؟

بعد ساعتين، كنت أخرج من مدرجي. وأنا في طريقي إلى الشارع. نظرت إلى الكافيتريا من بعيد. كان ما يزال جالسا. يحدق في الفراغ. وأمامه كوب فيه بقايا شاي. وزجاجة مياه غازية شرف نصفها. وكوب ماء فيه أقل من النصف.

لكن ذبابة كانت تحوم على الأكواب الثلاثة. خيل إليَّ عندما كنت أنصرف أنها حطت على بقايا كوب المياه الغازية.

مراســـــيل

.. عدت وما عدت. حصلت على إجازتي السنوية ومــا استرحت. هـا أنـذا فـي أحضـان الوطن، أمشـي علـى ترابـه. ولكـن القلـب مثقــل والنفس أسيانـة. وفي العين مشروع دمعــة. مضــى عليهـا أسـبوع دون أن تكتمل. وتنزل وتريح نفسي، وتهدأ أعصابي. وأخـرج مـن كـل هـذا الذي أمر به.

يعرف مواعيد سفري، ويوم عودتي. ليس من حقي الاتصال بـه. يعيش في بيته القديم. مع زوجته التي أصبحت مطلقـة. ولكنـهـا بسبب أزمة المساكن. ولأنـهـا أم ابنه الوحيد، وابنته الوحيدة. والذي كان يصر على وصفهما بالوحيد والوحيده. رغم أنـهما شقيق وشقيقة.

يعيش معها إذن تحت سقف واحد. رغم وقوع الطلاق بينهمـا. لا أصدق نفسي عندما أقول إنّني لا أعرف رقم تليفونه. هو من ناحيته لم يعطني إياه. لست أدري بأي دافع تم هذا. ولكني أعرف أننـي خروجـا من أزمة الكبرياء الجريحة. لم أطلبه منه أبداً.

قبل سفري، وضع لـي نظاماً ثابتاً. أذهب إلـى شـقتي. التــي أقـول عنـها أمامه شقتنا. في الحي البعيد عن سكن أسرتي، والقريب جدا مـن بيته. بعد أسبوع من العودة. أجد ورقة على السفرة. تحـدد لـي موعـد

اللقاء اليتيم الذي يجري بيننا خلال الإجازة كلها. وذهابي إلى شقتي لا يثير أي تساؤل عندنا. والمبيت هناك من المفترض أن يكون أمراً طبيعيا في بيت أملكه.

ونظراً لبعد المكان، ولأنها ليلة خاطفة. ولأنه لا أحد من أهلي سوى أمي وشقيقتي يعرف عنوان البيت، فالأمر أمان. مع أن الذي أقضي معه الليل هو زوجي على سنة الله ورسوله. وأهلي يعرفونه اسماً وشكلاً، بل ويتابعون أخباره. منذ أن أشرف على رسالتي للدكتوراه. التي أضافت دال نقطة إلى اسمي. أصبحت الدكتوره. في نفس اليوم الذي حصل هو عليَّ فيه. بزواج لو حكت لي إحدى صديقاتي تفاصيله لرفضته، واستخدمته في معايرتها.

جوهر المشكلة أن الأمر يختلف عندما ننظر إلى فعل ما يرتكبه الآخرون. فيكون أول ما عندنا هو الإدانة التي لا ترحم، ولكننا عندما نضبط أنفسنا متلبسين به. نجد آلاف الأعذار والمبررات لما قمنا به.

مرَ عليَّ الأسبوع الأول بصعوبة. كانت أيامه تتلكأ في سيرها. يدفع النهار ليله ببطء. ويتوقف الليل طويلا عند مروره عليَّ. ما إن اكتمل الأسبوع حتى ذهبت إلى الشقة، فتحت الباب بسرعة. ومن لهفتي خُيِّل إليَّ أن الباب عاكسني. كدت أن أكسره. دخلت الشقة. اتجهت إلى المائدة التي تتوسط الصالة. بالتحديد إلى الفازه الكريستال التي تتوسطها. والتي يضع الرسائل تحتها عادة.

لم أنتبه لروائح الشقة المغلقة. العطن والعفونة التي تخرج من الزوايا والأركان. الهواء الراكد، الذي يبدو ثابتاً في مكانه منذ سافرت قبل ستة أشهر مضت. كان الضوء خافتاً. أشرطة أطلال نور تتسلسل

من شيش النوافذ المغلقة.

قربت الورقة من عينيَّ حتى أتمكن من القراءة. قد يؤخرني فتح النافذة عن اللقاء مع رسالته. إعادة التيار الكهربائي وإضاءة نجفة الصالة قد يكون في طول ما مضى من العمر كله. على الضوء الشاحب العليل الذي لا يكشف شيئاً. نظرت في الرسالة.

د. أحكام

لعلك لا تعرفين أن الليلة التي قضيناها معا في الإجازة السابقة. تسببت لي في مشاكل لا نهاية لها مع ابني.

قد لا أتمكن من رؤيتك في هذه الإجازة ولكن تبقى رائحة عطرك في أنفي مدى الحياة لا أشم سواها.

ودمت.

د. العيسوي البدري العيسوي.

جلست على أقرب مقعد في الصالون. الذي تؤدي إليه غرفة الطعام. نظرت إلى الورقة مرّة أخرى. صيغة جافة ورسمية. يعلن بها موقفاً للآخرين. أكثر من كونه يكتب لي. لماذا نسي أن يقول الليلة اليتيمة التي لم تتكرر بعد ذلك أبداً؟! هل ابنه هذا هو ضرتي التي لا أعرفها؟ الآن فقط فهمت. لقد طلبت منه بعد زواجنا، الذي لم يتمَ سوى على ورق العقد الذي كتبناه. أن يعرِّفني على ابنه. الذي يحبه لحد الجنون. فرفض حتى مناقشة الفكرة.

هذه ثاني إجازة لي بعد زواجنا. الذي لا أعرف كيف تم. بل إنني عندما أعيد ترتيب الأحداث والوقائع في ذهني. تظل هناك، فجوات

وفراغات. وأجزاء ناقصة من الصعب ملؤها.

تجولت في الشقة. من الواضح أنه يحضر إلى هنا أكثر مما تصورت. إن كان يمكنه الحضور في غيابي. لماذا لم يأت إليَّ لكي يبلغني محتوى رسالته ومضمون خطابه؟ قبل خطوة الزواج، كنا نتكلم ونتناقش في جميع أمور حياتنا. التي لم يكن فيها ارتباط بعد. كانت رحابة صدره تحيِّرني وتعذبني. وحاولت أن أتعلم منه كل هذه القدرة على الإنصات للآخرين.

بعد الزواج، وفي اللقاءات النادرة التي تمت. بدأ يتحدث عن ديمقراطية المناقشة ودكتاتورية القرار. ونسي ما كان يقوله عن الحرية والمساواة. وأن المرأة لا يجب أن تتوقف أمام قضايا تجاوزها الواقع، كان يتهم المرأة بأنها مازالت سجينة أوهام الماضي. وأن عليها أن تشارك الرجل في حل مشاكل واقعهما معاً.

في الإجازة السابقة، التي كانت إجازة زواجنا الأولى، بدأ يتحدث عن الرجال القوامين على النساء. يحدث أن أصرخ في وجهه «بما أنفقوا»، يحاول أن يتناسى أنني أنا التي بنيت هذا العش المهجور. وأنه تعلل بمصاريفه وتبذير ابنه وسرقات مطلقته منه. من الصعب أن يحدد ما يخصه. في مواجهة ما تملكه هي. الشقة واحدة. والمطبخ واحد. والثلاجة وحيدة. والبوتاجاز واحد. فكيف يحسم هذه الأمور؟ أجلت حكاية بما أنفقوا إلى خناقات قادمة. وهذا التأجيل أصابني بحالة من الكدر. وأصبحت سحابات الغم تظلل وجودي.

لم يكن هناك تاريخ على الورقة. رحت أوهم نفسي أنه تركها من الإجازة السابقة. ربما في آخر أيامها. لأن ليلتنا الوحيدة. كانت قرب

نهايتها. قلت فلأحضر في الأسبوع القادم. ربما كان الاتفاق أن أحضر إلى هنا بعد أسبوعين، عندما وضع لي القواعد الصارمة، لم دونها؟ مازال يصر على التعامل معي. كما لو كنت مازلت تلميذته.

بعد الأسبوع الأول، كانت في انتظاري رسالة جديدة منه، خطفت بصري من أول لحظة دخولي الصالة. كما لو كان هناك ضوء مسلط عليها. مع أن النور الشاحب كان يغطي الشقة. ونفس الهدوء الذي أسمع فيه أصوات الصمت. قلت قبل البدء في قراءة الورقة، إنَني تسرعت، وظلمت الرجل. ها هي رسالة الموعد. ولكن عندما بدأت قراءة كلماتها القليلة. أدركت أنها رسالة الوعد والوعيد.

د. أحكام

لا تنزعجي، لقد أخذت كتبي الموجودة ورغم أنني ليس مطلوبا مني إبداء أسباب لاسترداد ما يخصني وما أمتلكه. ولكني أقول لك أنني أحتاج بعضها في أبحاثي ودراساتي. والمشوار من بيتي إلى هنا يهد الحيل. الذي أصبح مهدوداً من اللاشيء.

د. العيسوي البدري العيسوي

هذه المرة فقط، تنبهت إلى حكاية اسمه الثلاثي. والدال نقطة التي تسبق اسمه. وكل هذا الجفاف في الرسالة. تذكرت أنه عندما أحضر هذه الكتب إلى الشقة. قال إنه لا يحتاجها في عمله. وأنها تشكل هوامش تحيط بدائرة اهتماماته. وأنه يحب أن يريح ذهنه فيها. قال يومها أنها نوع من الطاولة والدومينو الفكرية. أما كتب دراساته فهي شطرنج أدبي.

وهل من المعقول أنه يحتاج إلى هذه الكتب جميعها مرة واحدة؟

الدمعة الأولى

إن في الأمر شيئا أبعد من مسألة أخذ الكتب. أليس هو أستاذ الرمز في الكلام والإيحاء في الكتابة؟ لابد وأن وراء كل هذا، أمور قادمة في الطريق. ماذا يخبئ لي حضرة الأستاذ؟! لا أنكر انبهاري به عندما كان مشرفا عليَّ. رغم نفور كل المحيطين بي منه، ورفضهم له.

ذهبت إلى الشقة مجدداً. لن أقول شقتنا. فذلك يثير السخرية والحسرة والألم في النفس. لأن نون الجماعة. لابد وأن تعود على آخر معي. هل أحلق مع الأحلام المجهضة وأقول آخرين؟! باعتبار أنه كانت هناك أحلام بأطفال. طفل وطفلة. كائن يحمل صفاته. وابنة يستمر جمالي من خلالها. عندما كان يقول لي ذلك. كنت أصاب بخجل مفاجئ، فقد كان شحيحا في التعبير عن عواطفه. نادراً ما يبدي إعجابه بي. لدرجة أنني تصورت أنه لا يراني.

بقدر ما كان طويلا. كنت متوسطة الطول. أقرب إلى القصر، قلت له في زماننا الأول. أن هذا معناه أنه يراني من عل. وقال لي أن هذا الطول يعطيه الفرصة لتأملي بهدوء وروية. كان يتكلم عن عواطفه، كما لو كان يلقي محاضرة في المدرج. لا يستخدم سوى الفصحى. ويحرص على شكل آخر الكلمات. تسلل إليَّ خاطر. أن هذا كله تمثيل في تمثيل. وأن الذي يجري بيني وبينه. كما لو كان يتم بين رجل آخر وامرأة أخرى. كنت أضبط نفسي أنظر إلى نفسي. حاولت إبعاد هذه الخواطر جميعاً. قد تفسد عليَّ خطتي الخاصة للبحث عن السعادة.

كنت أنوء بحمل سري. ورغم أن ما يربطني به زواج كامل متكامل. إلا أنني كنت أتصور أحيانا أنه ربما كان زواجاً عرفياً. كالذي أسمع عنه. وأقرأ وقائعه أحياناً. حتى أمي، أقرب الناس إليَّ، لم أجرؤ

حتى أن ألمّح لها. وهالني أنها بحس الأم وقلبها. لم تشعر أن ثمة شيئا غريبا يجري لي.

في الأسبوع الثالث. كنت أقرأ كتاباً. توقفت أمام جملة، مررت عليها أولاً. ولكني عدت إليها مرة أخرى. تقول أن الركن الأساسي في الزواج هو الإشهار، أي العلنية، لابد من مناقشة هذا الحاضر الغائب في هذه القضية. سأذهب إلى الشقة. فهي الجزء الوحيد في هذا العالم الذي يشهد على زواجي. والذي لم يشهر سوى بين جدرانها. وأكتب له رسالة بهذا المعنى. بدأت كلمات وأسطر الرسالة في التشكل في ذهني. لم تبق سوى الكتابة. كنت أعدل وأبدل في الصياغة. سأكتب له زوجي العزيز. لا. سأكتب دال نقطة واسمه الأول فقط. والتوقيع يكون باسمي الثلاثي. هل أتحدث عن الإشهار والعلنية. ومخاطر الزواج السري على دكتور في الأبحاث النووية. ودكتورة في نفس المجال؟

اشتريت أجندة ورقها ملون. هذا ما لم أفعله في مراهقتي الأولى. ها أنذا أحاول العودة إليها. بعد أن ولت أيامها. ولم يعد لها وجود. وقلم يكتب بلون يثير الحنين في النفس. سأجلس هناك وأكتب. سأترك نفسي على حريتها وأدون ما في حبة القلب. يخرج كما هو بدون تزويق. منه لله. ينتقم منه رب العباد. حرمني من المشاعر الجميلة والعذبة التي طالما تخيلت نفسي فيها. سرق مني شبابي، وصادر مراهقتي. وها أنذا أفكر في كتابة أول رسالة حب في حياتي ولكن وأنا في محنة.

البحر ورائي والأعداء أمامي. ولا مفر. لم يكن في شبابي شباب. ولم تكن في مراهقتي مراهقة. اصطادني من بين الطالبات. هو الذي

اختارني. كان سؤاله الأول لي: هل تحلمين بوالدك في المنام؟! قلت: كأب؟! قال: لا. ثم ضربني بالسؤال اللطمة: هل ضاجعك في الحلم؟! صرخت في وجهه. وقابل صراخي بقهقهة عالية. ضحك صادر من نبع القلب الصافي. قال لي بعد أن توقف صراخي، وأطل الدمع من عينيه من كثرة الضحك: لذلك اخترتك. سألته: لم وقع علي الاختيار؟! قال لي: هذا ما ستعرفينه فيما بعد. ربت على كتفي وهو يقول، وكأنه ينشد بيتا من الشعر: الأيام حبالى بكل جديد. وكل جديد آت يا بنت الأصول.

دخلت الشقة وأنا متحفزة هذه المرة من أجل الكتابة. اتجهت إلى النافذة لكي أفتحها. لن أكتب سوى في ضوء النهار. توقفت في منتصف الصالة. كانت هناك رسالة. أنا متأكدة أن المكان تحت الفازة الكريستال، كان خاليا، عندما كنت هنا آخر مرة. نسيت النافذة وأخذت الرسالة. وجلست على نفس المقعد. نظرت في الورقة. نفس نوع الورق والقلم. والحبر الأزرق الذي يحب أن يكتب به. يقول أنه لون التأمل. الذي يعتبره وسيلة من أجل الوصول إلى الحقيقة. نفس الخط الدقيق المنمق الصغير الأقرب إلى النمنمة منه إلى الكتابة. ورغم صغره. فقد كنت خبيرة في قراءته وفك رموزه ومعرفة خباياه.

د. أحكام

معذرة، اضطررت لأخذ التليفون الأحمر. الذي في غرفة النوم. فأنا في أمس الحاجة إليه. وقد بحثت عن تليفون شبيه له فلم أجده في أي مكان. وثمنه عندما اشتريناه كان مائة وخمسة وثمانين جنيهاً. وحيث أن لي بطرفك. مائة وواحد وثمانين جنيها ونصف قيمة فواتير ماء وغاز سددتها في غيابك. والايصالات موجودة في النملية العليا

بالمطبخ وراء الباب. يكون لك طرفي ثلاثة جنيهات ونصف. سأتركها في المرة القادمة. لأنه لا توجد معي فكة. وقد لا تعرفين حجم أزمة الفكة في بلادنا هذه الأيام.

مرة أخرى معذرة. مصحوبة بتحيات رطبة.

قمت من مكاني. هل أقول أنني ذهلت؟! هل أؤكد أنني لم أكن قادرة على تخيل أو تصور المكتوب أمامي؟! الرسالة الوحيدة التي بدأها معتذراً. وأنهاها بالاعتذار. إنها المرة الأولى التي يعتذر فيها. كان يقول لي دائما. ليس بين المحبين كلمة آسف. وكنت أتقبل هذا رغم تأكدي من كذبه. الرسالة الوحيدة المليئة بتفاصيل عدوانه على تليفون اشتريناه معاً. هو الذي اختاره. وأنا التي دفعت ثمنه. وهو الذي قرر أن يكون في غرفة النوم. يومها قلت له: وهل ينقصنا الازعاج؟ قال إنه إزعاج لابد منه. فهو أحد أدوات الحضارة الإنسانية. وقبل كل هذا وبعده. فهي الرسالة الأولى التي لم يوقعها باسمه الثلاثي كما تعود أن يفعل.

كان السؤال الذي يدق جدار رأسي: لماذا أخذه؟! ولم هذا الاحتياج الشديد له؟ الذي دفعه إلى الإقدام على تصرف يشبه السرقة. هل شقته القديمة بدون تليفون؟! أم أنه يؤسس شقة جديدة؟! وإن كان الأمر كذلك. هل توقفت الأموال عند عدة التليفون؟! ثم ألم يكن من الأفضل أن نلتقي ونتحاسب؟ كيف يحاسبني على مبلغ دفعه للنور والماء والغاز. وهو الذي استخدمها؟ لم أكن هنا. إن كان هناك حساب كهرباء فهو الذي أضاءها؟ والماء هو الذي شربه واستحم به. والغاز هو صانع القهوة عليه لا أنا. وهل من المعقول أن يتصرف الأزواج

بهذه الطريقة؟ لا إن الأمر يه ما هو أكبر من كل هذه التفاصيل الصغيرة. يبدو لي أن كل هذه مقدمات لما نحن مقبلان عليه. مزقت أوراقي وحطمت القلم. وأخذت نفسي. بالتحديد جمعت أشلائي وانصرفت.

احترت ماذا أفعل. إلى متى أقرأ ما يكتبه لي وإجازتي تتسرب أيامها من بين يدي كالماء في الغربال. وسأجد نفسي فجأة في مواجهة لحظة الرحيل التي لا مفر منها أبدا. لابد من التصرف.

نزلت إلى الشارع. تحركت بسيارتي. حتى انتهى العمران وبدأت الصحاري. التي تعطيني الإحساس بالانطلاق وبعده العطش الحارق. نزلت. أخذت بعض الرمال وضعتها في كيس كان معي. عدت إلى شقتي. وقمت بفرد الرمل في المدخل وراء الباب مباشرة. ولاحظت شكله من أكثر من زاوية.

هذا ما شاهدته في أفلام الجاسوسية. عندما يخرج الجاسوس من المكان الذي يعيش فيه. لابد له من القيام بعمل حتى يضمن معرفة من الذي دخل بيته في غيابه. وأنا كنت أريد من الرمال أن تعرفني إن كان زوجي يحضر إلى الشقة بمفرده أم أن هناك من تحضر معه. لأن بعض تصرفاته. تبدو لي كما لو كانت تصرفات إنسانة أخرى تأتي معه إلى الشقة.

أغلقت الباب وذهبت. إلى منزلنا. وأنا أبدو أمام نفسي كالمرأة الحامل. أريد أن أفضفض، أن أحكي. ولكن لمن أقول. إن حكيت سرك لآخر لم يعد ملكا لك. وحتى الآن لا أعرف كيف سأخرج من هذه المصيبة. لا داعي للحكي الآن. إلا عندما أعرف كيفية الخروج من هذا

النفق المظلم. كنت أؤمن أنه في آخر كل نفق، لابد من وجود مقدمات للضوء. النور دائما في آخر أنفاق العتمة. إلا في هذه المرة. حتى إن خرجت من النفق. لن أجد أمامي سوى العتمة أيضاً. لن أنوح وأبكي. وأقول. هذا هو نصيبي أنا التي صنعت هذه المحنة. ولكني لن أتمكن من الخروج منها بمفردي أبداً. سأعود إلى الشقة بعد أسبوع آخر. وكل أسبوع يأتي معه بكارثة. هذا ما جرى معي في هذا الصيف الحزين. منذ عودتي لبلادي. وأنا أتساءل كل صباح عما ينتظرني من مفاجآت. فكرت أكثر من مرة في العودة مرة أخرى. إلى حيث أتيت.

لم يكن عندي دافع قوي للذهاب إلى الشقة. وليست هناك حاجة لابد من قضائها. ولكن هذا ما كان. فتحت الباب ولم أدخل. وقفت ونظرت إلى الأرض كانت الرمال توضح أربعة أقدام داخلة. ولكن في لحظة خروجها تقاطعت الأقدام الداخلة مع الخارجة. ذهلت. هو لا يأتي إلى هنا بمفرده إذن. جلست القرفصاء على الأرض. قدمان كبيرتان إلى حد الفرطحة. لم أر قدميه في حياتي سوى مرة وحيدة. في الليلة اليتيمة التي قضاها معي. تركني نائمة وانصرف في الخامسة صباحًا. كأنه سيخرج المحابيس من سجنهم. لابد وأن يمشي في هذا الوقت. كتب لي ورقة أضحكتني وأنا أقرؤها. حدد فيها لحظة مشيه بالدقيقة والساعة. ربما تصور أنني مازلت مبهورة به. والذي أضحكني قوله أنه انصرف لأن عنده لجنة هامة لا يستطيع أن يتخلف عنها.

القدمان الأخريان صغيران. هل يأتي بابنه ننوس عينه وحبة قلبه إلى هنا؟ دققت أكثر. خيل إلي أن القدم حريمي. لأن علامة الكعب واضحة. بدلا من الحذاء الرجالي الذي يطبع شكله على مساحة من

الأرض. بهت هل وصل استهتاره بي إلى هذا الحد؟ قفزت من فوق الرمال ودخلت. ذهب نظري غصبا عني إلى مكان الرسائل أسفل الفازة الكريستال. صندوق بريدي الخاص. كانت هناك رسالة أمسكتها بيدي. شعرت بالتغيير. الورق ليس هو نفس الورق. والخط ليس نفس الخط.

عزيزتي وحبيبتي

الأستاذ غرقان لشوشته في قصة حب جديدة مع تلميذة له. تعد الآن رسالة ماجستير تحت إشرافه. كانت من زميلاتك وتأخرت في زواجها وطلاقها لظروف خاصة. وأنت عرّفتيه عليها من قبل.

«فاعلة خير»

جلست على نفس المقعد الذي قرأت كل الرسائل الأخرى عليه. حاولت الهروب من الأسئلة التي لا مفر منها. من هي؟! وكيف تسللت إلى الشقة؟ هل أعطاها المفتاح؟! هل صاحبة الرسالة هي نفسها صاحبة قصة الحب الجديدة. ما جرى يكرر نفسه مرة أخرى. إن كان قد انتهى معي كمأساة. فهل يبدأ مع الأخرى كمهزلة؟ الكل باطل وقبض الريح. قصص معادة. وحكايا مكررة، ولا جديد تحت الشمس. وهكذا وصلت إلى نهاية ما كنت أريد أن أجد نفسي أمامها وجها لوجه بهذه السرعة.

خرجت من بيت أهلي صباحًا. بحثت عن محل للمفاتيح. كان المحل الوحيد القريب من شقتي خاصاً بمفاتيح السيارات. قلت لا بأس كلها مفاتيح والسلام. تكلمت مع صاحب المحل. قلت له إنني أرغب في تغيير كالون باب شقتي. نظر إليَّ بريبة. ولكن مظهري وسيارتي أكدا له أنني لست لصة جئت أسرق شقة ما. لم يطالبني بوثائق ملكية ولا

يحزنون. أشار، وهو ما يزال مستريبا فيَّ، إلى محل قريب منه. وقال أنني عليَّ شراء الكالون الذي يناسبني منه أولاً. قلت وأنا أشير إلى سيارتي أن الكالون معي. طلب من أحد الصبية أن يرافقني إلى البيت لتغيير الكالون.

عدت إلى سيارتي. ركبت، جلست على مقعدي أمام عجلة القيادة. وفتحت الباب الذي بجواري. فكرت أن أفتح الباب الخلفي لكي يجلس الصبي على الكنبة الخلفية، بدلا من الجلوس بجواري. خوفا من ألسنة الجيران التي لا ترحم أحداً. وأنا لن أحكي وأقول أنني جئت بهذا الصبي من أجل أن يغير لي الكالون.

من يدريني. ربما كانت هناك أعين له تتابع حضوري وانصرافي وتبلغه. لابد من الانتهاء من هذا الأمر بأقصى سرعة ممكنة. هكذا قلت للصبي. وأكدت له أنني سأكرمه، وأشرت لعيني. وأنا لا أعرف ما هي العلاقة بين الكرم والعين.

وقفنا على باب الشقة. بعد أن فتحناه. ومن الفتحة وقف الصبي يعمل، وأنا أستعجله. وقد جلست على كرسي في المدخل. وكنت أقوم وأقف في المدخل. وفي الطرقة التي أمام الشقة. وحمدت الله أن عدد الجيران الذين مروا علينا خلال هذا الوقت كان قليلا جدا.

ورغم سرعة الولد الصنايعي في العمل. إلا أنه خيل إليَّ أنه استغرق وقتاً طويلا. وبعد أن انتهى من عمله، سلمني الكالون القديم. وبدا من شكله أن كان يود الاحتفاظ به لنفسه. جربنا فتح الباب وإغلاقه أكثر من مرة. قال لي الصبي أن الباب من المفروض أن يتم ضبطه مع إطاره. والجدران والأرضية. قلت له فيما بعد.

عندما كنا ننزل، الصبي على السلم، وأنا في المصعد. تأكدت أنني أخذت منه المفاتيح الثلاثة التي اشتريتها مع الكالون. وأن الصبي لم يأخذ مقاس المفتاح على مناديل ورقية معه. حتى يصنع مثله ويسرق الشقة. عموما أنا لم أحضره من على الرصيف ولكن من محل معروف.

بعد أن حاسبت صاحب المحل. وأعطيت الولد الباقي بقشيشا ولم أتكلم عن الأسعار. تركتهما في طريقي إلى بيت أهلي. كنت مشغولة بمنظره عندما يحضر إلى الشقة، مزهواً طاووسياً. عنده إحساس بالانتصار في معارك لم يخضها. ويقف بخيلاء يميز كل تصرفاته. ويخرج سلسلة مفاتيحه من وسطه. وصل إلى السبعين ويصر على أن يتصرف كالشباب. وهم يتعاطاه في كل لحظة.

يبدأ في فتح الباب. هذه هي لحظة انتصاري عليه. لا تهمني إجراءات الطلاق ولا مؤخر الصداق. الأهم هو أن يكتشف الحقيقة الجديدة بأسرع ما يمكن. كان يتباهى أمامي بذكائه الخارق وعقليته العلمية وسبقه لعصره. وأنه يعيش في زمن غير الزمان الذي يحيا فيه كل الناس الآخرين.

إنه يتميز بسرعة بديهة. رحت أحسب الثواني والدقائق في عقل بالي. حتى يكتشف أن المفتاح الذي معه، لم يعد مفتاحا للشقة. خمس عشر ثانية؟ ثلاثون؟ أربعون؟ كيف سيتصرف؟! هو لا يتصل بي في بيتي أبدا. وليس لنا أصدقاء مشتركون. لأنه اعتبرني سرا خاصاً. بمن سيستعين إذن؟ هل سيغضب؟ سيحزن؟ قال أمامي ذات مرة. إن بكاء الرجل ضعف. وعواطفه الجياشة خيانة لرجولته.

الدمعة الأولى

عرق تركي يسري في أعماقه. نفخة كدابه تحدد موقفه من الدنيا. كنت سعيدة بالانتصار عليه. مددت يدي في حقيبتي. تحسست الأوراق التي كتبها لي في هذه الإجازة. دليل على إدانته. وإن رفض الوصول إلى حل بدون مشاكل. لا بد مما ليس منه بد. تنهدت حزينة وأنا أتخيل الطريق الذي ينتظرني.

بدأت في إجراءات العودة إلى البلد العربي الذي أعمل فيه. كان الباقي عشرة أيام. ومع هذا بدأت إجراءات السفر التي كنت أحاول التهرب منها في المرات السابقة. وخلال زحام وقائع الرحيل. مررت على مكتب محامي. لا أعرفه ولا يعرفني، زبونة عادية. ما أكثر المحامين في عائلتنا. ولكني حاولت الابتعاد بسري عن الجميع. أليس محزنا أن أتكلم عن طلاق من زواج لا يعرفون عنه أي شيء. لا أحب مصمصات الشفاه المشفقة، ولا نظرات الرثاء. وأكره كلمات العطف ومواعظ الرثاء ونصائح أهل الخبرة. خاصة عندما أكون مهزومة.

دفعت أجر الاستشارة القانونية. حتى الهواء في بلدي أصبح له ثمن. وعندما دخلت مكتبه. قلت طلبي باختصار. وهو قال لي إن إجراءات الطلاق تستلزم أوراقا لابد من إحضارها. وقبل ذلك كله. توكيل خاص موثق في الشهر العقاري. هذا ما عليَّ. والباقي على ربنا. قلت ونعم بالله.

تحدثت عن مقدم الأتعاب، ومؤخرها. تذكرت مقدم الصداق ومؤخره. كانت الأسوار ترتفع بداخلي. تحمي سري الخاص. بعيدا عن الآخرين. ولكن مفاجأتي الحقيقية. أتت وأنا في حمى إجراءات السفر عندما فوجئت بأمي تقدَم لي جواز سفرها ذات صباح ومبلغا من المال.

مـن أجـل السـفر معـي. ثمـن تذكـرة السـفر والتأشـيرة. هـذه أول مــرة تفعلها. لم أسألها. وأحسست أنني كنت في أمس الحاجة إلى هـذا. وإن كان من الصعب أن أطلبه.

في المطار، بعد أن أصبحنا في الفراغ العذب. بيـن بـاب الخـروج من المطار والطائرة. اقتربت أمي مني وسألتني، ولكن من سـيتابع لـك قضيتك؟! وهل يمكن الفصل فيهـا فـي غيابك؟! ارتمـت فـي أحضـاني. جاءني مطر الدموع الدافئة. لم أرد عليها سوى بحالة بكاء أقـرب إلـى الهستريا. كان كل جزء مـن جسمي يهـتز من طوفـان الدموع. ولكن الذين حولي لم يستغربوا وضعي لأننا في مكان تعد دموع كل لحظة من أهم علاماته.

وإن كانت أسئلة أمي قد طارت معي. لأن الإجابـة عليهـا لـم تكن عندي.

كانت عند المحامي.

مطـر الدمـوع

- لام ألف
- جـاري

لام ألـــف

.. كنت أستعد للسفر، هذا يومي الأخير في هـذه البـلاد. وكـل مـا أقوم به يمكن أن يبدأ بكلمـة الأخـير. ليلـة الأمـس كـان موعـد العشـاء الأخير. وعندما دخلت الحمام في الصباح المبكر. قلت حمـامي الأخـير. وما إن وقفت تحت الدش حتى قلت: استحمامي الأخير. وقفـت أتنـاول الدواء المقرر قبل الإفطار. قلت: هذا دوائي الأخير في هذا البلد. نزلـت إلـى المطعم. وأنـا أردد، الإفطـار الأخـير. وكـان المشـي فـي الردهـة الموصلة إلى المطعم لآخر مـرة. الاستثناء الوحيـد كـان فـي المصعد، لأنني سأصعد به بعد الإفطار، إلى الغرفة. وأنزل إلى الاستقبال.

في الغد، أي بعد مرور أربع وعشـرين سـاعة مـن الآن، سـأكون في بلدي. وكل ما سأقوم به. سيبدأ بعبارة أول مرة. بكل مـا فيهـا مـن البكـارة. سيكون لـدي الصحـو الأول مـن النـوم. فـوق أرض الوطـن. والحمام الأول. والإفطار الأول. والشاي الأول. والقهوة الأولى.

وجـدت فـي مطعم الفنـدق. رفـاق الرحلـة. جلسـت معهـم. جـزء أساسي من جمال وعذوبة مذاق الطعـام، هـم رفقـة تناولـه. لـم أجلـس بمفـردي. والأحبـة هـا هـم جميعـا. علـى سفر مثلـي. وتنـاول الإفطـار الأخير. سيكون بمثابة اللقاء الأخـير. تبادلنـا تحايـا الصبـاح. كـل بلغـة بلده. وبمفـردات وطنـه. وتنـاثرت كلمـات فـي الجـو عـن سـهرة الليلـة

السابقة. وقلة ساعات النوم. وتوتر ما قبل السفر.

سنتفرق، أو نفترق، كل إلى حال سبيله. يسافر إلى البلد الذي يقصد. وضعت مفتاح غرفتي العابرة. غرفة الفندق. على جزء من المنضدة، أو على جزء من الجزء المخصص لي في المنضدة. وبجوار المفتاح أجندة تليفوناتي. لكي أذهب إلى البوفيه المفتوح. احضر افطاري.

بدأت بالفاكهة. وثنيت بالشاي والماء. وذهبت لأحضر الجبن بأنواعه المختلفة. كنت أتنقل في ركن الجبن. أنقل نظري بين الأبيض المصري. والفنلندي والفرنسي من أنواع الجبن. عندما دخلت المطعم غادة هيفاء. كانت هي نفسها التي حلمت بها ليلة أمس. حيث قضيت ليلتي الأخيرة في هذه البلاد معها. ونومتي الأخيرة تحولت إلى سعادة، بفضل وجودها.

مع أن الليلة الأخيرة. تكون عادة ليلة قلق وأرق وتوقع يمسكني مرض الترحال ولا يفارقني. لا أستريح منه، سوى عند فتح حقيبة السفر في بيتي. بعد العودة إلى بلدي. وإن نمت في هذه الليلة. فسرعان ما أصحو فزعاً. إما على أثر منع من السفر. أو وصولي إلى بلدي، ثم أكتشف أن جوازي فقد. ويكون عليَّ الانتظار في غرفة متر في متر إلى أن تحل قضية فقد الجواز. وهي - في العادة - من القضايا الصعبة والمعقدة.

مجيء الغادة الهيفاء، خفف عني كل عذابات الليلة الأخيرة، ذهبت معها إلى كل الأماكن التي حلمت بالذهاب إليها. كان في وجهها كل الحسن الذي في هذا العالم. قلت لنفسي لم يبق سوى الخضرة

والماء. وها هو الوجه الحسن معنا. متى يذهب عني الحزن ويفارقني ولا يعود له وجود في حياتي؟

سمعت القمري يزقزق، والعصفور يشقشق، واليمام يهدل، والحمام يناغي. والليل يغني. لم تقع عيناي على ما يمكن أن يعكر صفو حياتي. وجاشت في وجداني أبيات من الشعر. تتحدث عن الجو عندما يصفو. والحال عندما يهدأ والقلوب عندما تصبح قطعة من الشهد.

وبينما أنا عائد إلى المنضدة. وبيدي طبق الجبن. إذ بجنّية الليلة الماضية. تقف أمامي. هي نفسها. ربما كانت المرة الأولى. التي تخرج فيها هذه الكائنة الخرافية من ضباب الحلم إلى وضوح الواقع.

كانت هي هي، بنفس الملابس. والحقيبة معلقة في كتفها. لا هي بالطويلة ولا بالقصيرة. ولا بالرفيعة أو السمينة. ولا بالبيضاء أو السمراء. امرأة تقف على حافة كل نساء الأرض. فيها من كل جميلة صفة. جمعت في حسنها كل بنات حواء. وأعذب ما فيها تلك الابتسامة التي تكاد أن تصل إلى حافة السحر. وأول حدوده. وتأخذك بعد ذلك، إلى حيث كل مستحيلات الدنيا، لتجعلها من الأمور الممكنة.

ألقت تحية الصباح على الجميع. خيل إلي أنها تعرفهم جميعا وأنهم يعرفونها. كما أعرف كف يدي. قاموا جميعا لتحيتها والسلام عليها. ولكنها أشارت لهم وقالت:

- بعد إذنكم.. أريد هذا الرجل في عمل لا يقبل التأجيل.

همهموا في صوت واحد:

- إذنك معك.

1 - حكاية حدثت

وقفنا في الاستقبال. قلت لها:

- أنا تحت أمرك.

قالت لي. وكأنها تحلق:

- شبيك لبيك. أنا ملك إيديك.

أنا الذي اخترت. قلت لها نجلس في هذه الشرفة الجميلة القريبة. التي تطل على حديقة. ومن ورائها الماء. أليس هذا جزءا من الذي جرى في الليلة السابقة. لم أحب أن أكلمها عن الزيارة الليلية. ربما استحضرتها في خيالي، دون أن تدري. ولكن هل يحلم الإنسان بإنسانة لم يرها من قبل؟! كيف لا أعرفها وخيالي رسمها لي ألف مرة. حتى خيالي. في أكثر توهجاته. وأعظم تجلياته لا يمكن له الوصول إلى هذه الإنسانة.

إنها أكبر من الحلم، وأحلى من الأمنيات. كانت آخر منضدة قبل الفراغ العذب خالية. فراغ لا نهائي يجمع بين ألوان ورود الحديقة المتناثر على خلفية من الخضرة العذبة. ونصل إلى خط الأفق حيث تلتقي زرقة المياه الغامقة. بزرقة السماء الصافية، وكانت سحب الخريف تحول شكل السماء إلى لوحة نادرة.

أقبل الجرسون. سألها أولا عما تشرب:

- قهوة.

والتفت إلي:

- وحضرتك؟!

قلت وأنا أشير إليها:

- مثلها.

اقترب مني مسؤول العلاقات العامة. قال لي:

- الباقي من الزمن ساعة.

تضاحكت وأنا أتساءل:

- الباقي من الزمن ساعة؟

أكملت:

- هذا عنوان رواية لنجيب محفوظ.

قال لي:

- فعلا.

سألته:

- فعلا تتحدث عن الزمن الباقي أم عن الرواية؟

قال:

- الباقي من الزمن ستون دقيقة بلا زيادة أو نقصان.

كنت أحاول الهروب من الحقيقة. فعدت أحدثه عن الرواية. فقال لي. وقد تجهم وجهه. وامتص الابتسامة التي جاء بها:

- لا أتحدث عن روايات.

قلت:

- ولكني أتحدث عن آخر ساعة لي على هذه الأرض.

عاد موظف العلاقات العامة يؤكد لي أن موعد مغادرة الفندق بعد

ساعة من لحظة وصوله إليَّ. قلت له: ولكن موعد إقلاع الطائرة في المساء. أشار إلى عقله. وقال لي إنه لا بد من ترك الفندق بعد ساعة للجميع. وإلا حسبت الليلة القادمة علينا ولا حل سوى المغادرة. وأن علي إحضار حقائبي قبل أن تنقضي هذه الساعة.

نظرت إليها كالمعتذر. كنت أمام لحظة فاصلة. ولكنها تصرفت. بعد أن تركنا موظف العلاقات. شربت قهوتها بسرعة. وبدون تذوق. تجرعتها كما لو كانت ماء. وطلبت مني الانتهاء من قهوتي بنفس السرعة. وقالت لي:

- توصلني حتى السيارة.

سألتها:

- أليست السيارة في أبعد مكان على الأرض؟

أشارت إلى موقف سيارات خصوصي بجوار الحديقة:

- هذه السيارة المرسيدس البيضاء.

هتف الشاعر بداخلي. وأنا أنظر إلى السيارة:

قد يهون العمر إلا لحظة قد يهون العمر إلا موضعاً..

رددت البيت، وأنا لا أتذكر من قائله. ولا أعرف إن كان تذكري له كاملا ودقيقا. وأشعر باندهاش حقيقي من حفظي له.

نزلت معها. سرنا معا حتى السيارة. كانت مسرعة وكنت أتباطأ. وكان عقربا الساعة يتحركان ولكن في عقلي، ويشقان قلبي. وهي كانت تنظر إلى الساعة أكثر مني. في دقائق معدودة كنا عند السيارة. وجلست خلف المقود الذي فتحته في سهولة ويسر. وأدارت السيارة.

سألتني، والسيارة دائرة، هل لك مكان يخصك في بلدك بعيدا عن

الآخرين؟ أومأت برأسي نعم. قالت: إنها تريد الاستماع مني إلى كلمة نعم. فقلت لها نعم. قالت لي إنها ستسافر مع ابنها وابنتها إلى أوروبا في الصيف القادم. - كنا في الربيع - وبعد انتهاء الصيف. سيعود الابنان إلى بلدها مباشرة. أما هي فستمر على بلدي. وستكون معي طوال الخريف. تساءلت: ومن الذي لا يحب الخريف؟ قالت لي. إذن سنصنع الجنة على الأرض في الخريف القادم.

تحركت السيارة وهي تقول لي مع تلويحة الوداع:

- إن أجمل الأيام هي التي لم نعشها بعد.

حاولت تذكر صاحب هذا البيت الشعري الذي كان جميلاً ولكنها تستخدمه الآن للهروب مني. تحركت السيارة. عند ناصية الشارع. استدارت. نظرت إليَّ ولوحت من جديد. أشرت لها مستغيثاً. أوقفت السيارة جريت حتى مكانها. عندما وصلت إليها. قلت لها:

- ألا يمكن أن نلف - ولو بالسيارة - في الميدان الذي يحيط بالفندق؟

- ليس ورائي سفر. المشكلة مشكلة اختياراتك.

كان موظف العلاقات العامة. يقف على البعد. في مدخل الفندق من جديد. لم أكن قد رأيته. وهي التي أشارت إليه:

- الموظف يبحث عنك.

وسارت.

بعد أن تحركت بالسيارة. وابتعدت. وأصبحت على مدى الشوف. تذكرت في هذه اللحظة فقط. أنني لم أحصل منها على عنوانها. وأرقام تليفوناتها. وطريقة الاتصال بها. فشعرت بحالة من الحزن الذي بلا حدود. قلت: يا ويلي من الأيام القادمة.

2 – حكاية لم تحدث

على طريقة سهولة وبساطة ويسر حكايات ألف ليلة وليلة تصرفت محبوبتي. وعندما حضر الشماشرجي يذكرني بموعد الباخرة خيرتني بين أمرين: إما أن تصدر أوامرها بتأخير موعد تحرك الباخرة. أو أن يأخذني إلى قصرها في التو واللحظة وأنتظر الباخرة القادمة. بعد أيام أو أسابيع أو شهور

اخترت الحل الثاني. رغم أن الحل الأول. كان فيه من الإثارة الشي الكثير. لكن سحر وغموض الذهاب إلى قصرها. كان عذبا.

كنت – مثل كل بني البشر – طماعا. كنت أريد الجمع بين الأمرين. أن تؤخر السفينة حتى أذهب إلى قصرها. وأعود.

قالت لي:

– إن وصلت إلى القصر قد لا تحب أن تفارقه.

صفقت بيديها. جاء الخدم والحشم. طلبت حمل أشيائي القليلة من الخان. والذهاب بها إلى قصرها. الذي يقع في مدخل الميناء. وطلبت أن يجهزوا لنا مركبة. تجرها الخيول. وأن تكون مكشوفة. حتى أتمكن من رؤية المدينة. خلال ذهابنا إلى قصرها.

كان الناس يحيوننا على جانبي الطريق. وبدت ملابسي غريبة، وسط هذا الجو الحلمي. فكرت – بعد أن يستقر بي الحال – أن ألبس من ملابسهم. حتى لا أشعر بالغربة في الفترة التي سأقضيها هنا.

كان ذهني خلية نحل تطن بآلاف الأسئلة. كيف عبرت من زماني

إلى زمانها؟ وكيف انتقلت من البلد الذي كان فيه الفندق؟ إلى هذا البلد الذي لا يوجد فيه سوى الخان؟ ومن هذه المرأة الفاتنة؟ وهل ستكون هناك باخرة أخرى. إن تحركت هذه الباخرة؟ أو ما دمنا قد انتقلنا من زمن إلى آخر بعيد. من بلد غريب. ربما لن تمر سفينة أخرى. إلا بعد سنة من الآن.

نظرت إليها. لم أحتمل رؤية جمالها. من المؤكد أنني أحلم. من المستحيل أن تكون هناك امرأة واحدة لها كل هذا الجمال. قلت لها. وأنا أحاول أن أتفادى تأثير جمالها عليَّ:

- عندي أسئلة أبحث عن إجابات لها.

قالت لي:

- لي شرط واحد عليك.

هتفت مرحبا:

- اشرطي. لقد جئت إلى هذا العالم، كي أستجيب لما تطلبينه.

كان شرطها عبارة عن كلمة واحدة:

- لا تسأل.

استفهمت منها. قربتني منها. أحطت أذني التي ناحيتها بيدي واقتربت منها أكثر. دخت من الرائحة المسكية التي تنبعث منها. قالت من جديد:

- لا تسأل.

قلت لها:

- سأبلع كل أسئلتي.

مضت المحفة التي يحملها العبيد بها. والمحفة التي يحملها العبيد

بـي. كـانوا عـراة. وكـان الجـو قـد أصبـح حـاراً كمـا لـو كنـا عنـد خـط الاستواء. لولا أنه كانت هناك مظله تغطينا. كنا متنا من حـرارة الجـو. وصهد الشمس.

وصلنا إلى مجمع من القصور. قالت لي إنها ستذهب إلى القصور التـي علـى اليميـن. وأنـا بصفتـي مـن الضيـوف. ستكون مـن نصيبـي القصور التي ناحية اليسار. وكل ما قد تشتهيه النفس. ويطلبه الإنسان موجود عندي. تساءلت فزعـاً: «وأنـت؟» قـالت إنهـا ستطلبني عندمـا يحين الوقت.

تساءلت من جديد «كيـف؟!» قـالت إنهـا سترسـل مـن يحضرنـي إليها.

ذكرتني من جديد بشـرطها. ألا أسـأل. لأنـها لا تحـب أن تفزعنـي بالحديث عن عواقب طرح الأسئلة. حتى لا تحدث لي حالة من الرعـب. تفسد علي متعتي.

إن كان قد ذهب أحـد منكـم إلـى الجنـة. سيدرك حـالي. كـان مـن الصعب علـي إدراك مـرور الوقـت. ومعرفـة إن كنـا بالنـهـار أم بـالليل. جواري وعبيد. وكل ما يطلبه الإنسان مجاب. يكفـي أن أصفـق بيـدي. حتى أجد من يقبلون الأرض بين يدي.

أضفت إلى المحرم الوحيد الذي طلبته هي. محـرم مـن عنديـاتي. لم أقترب من أي جارية من الجواري. مشكلة عمرنا إنّنا جئنـا، بعد أن انتهى زمن الجواري. وإلا كانت مشاكلنا قد انتهت قبل أن توجد.

جحيم آخـر كنـت أعيشـه وأحـاول الهـروب منـه. وهـو أن يحيـا الإنسان محروما من طرح الأسئلة. مع أن ذلك من أبسط حقوقه. كـانت

الأسئلة تطن في رأسي. وكنت أحاول الهروب منها فورا. حتى طرح الأسئلة على من هم معي في القصور التي تقع في الناحية اليسرى لم أفكر فيه.

كنت أتصور أنها سترسل في طلبي بعد مرور يوم. ولكني عرفت من العبيد - دون أن أسأل - أن يوما قد مر. وجاء الليل الذي بعده. ولم أشعر أنها سألت عني. لماذا هي من حقها السؤال عني. وأنا ليس من حقي السؤال عنها. في هذا قدر كبير من الظلم. ولكن ليس أمامي سوى الاستمرار في هذه اللعبة حتى النهاية. مهما كان العذاب الذي أشعر به.

كنت أحاول تعويد لساني على لغة تخلو من بهجة السؤال. وجمال العثور على الإجابات. وكان هذا الواقع يبدو لي أملسا. له بعد واحد. وأدركت في هذه الأيام جمال أن يسأل الإنسان. وأن يحاول العثور على إجابة عما يشغله من أمور.

كان أصعب ما عانيته هو معرفة مرور الليل ومجيء النهار. كنت أحاول إدراك هذا دون اللجوء إلى عذاب السؤال. سؤال من يعيشون معي. وعلامات الجو لم تكن تصل إليَّ. لأن مجمع القصور كان مسقوفا ومعزولا عن الدنيا. وكان من الصعب في كل مرة، معرفة الوقت من كلام يدور بين الجواري والعبيد.

شعرت بحنين وشوق جارفين لرؤية سماء الله العالية. من كثرة ما نرى هذه السماء لا ندرك أن رؤيتها متعة من أجمل متع الدنيا. نحن لا ندرك قيمة ما نتمتع به إلا بعد فقده.

كنت أحاول تتبع الضوء والظل. ولكني فشلت. هذه القصور فيها

كل ما أطلبه سوى الإحساس بالزمن. خاصة بعد أن استبدلت لسان السؤال بلسان آخر. ممنوع عليه السؤال.

إلى أن جاءت، من الصعب عليَّ القول. أن مجيئها كان في يوم. فأنا لا أعرف ذلك. ومن المستحيل القول. إنها جاءت في ليلة. فأنا لا أعرف علامات الليالي هنا. في لحظة ما جاءت. وحتى قولي بكلمة اللحظة. افتراض نظري. لأنه ماذا يميز لحظة عن أخرى؟

أطلت علي جارية - هكذا تصورت - لم أرها من قبل. كانت مميزة عن باقي الجواري بلباسها، وجمالها. الذي ربما يفوق جمال سيدة المكان.

كانت طيعة. وفي نظراتها استسلام قدري. وأوحت لي بلغة النظرات. إنني يمكنني أن أطلب منها ما لا أطلبه من الآخرين. ولا أدري كيف جرى هذا. ولكني نظرت إليها:

- ألم ترسل سيدة المكان في طلبي؟!

رفعت يدها. غطت بها وجهها. وصرخت صرخة عظيمة وحدث زلزال مهول. ووجدت نفسي وسط الدخان والنار واللهب.

كان كل ما حولي ينهار.

3 - حكاية وقعت.. ولكن في الخيال

عندما كانت محبوبتي، تستعد لإدارة موتور سيارتها المرسيدس البيضاء. قلت لها:

- المراسلة نصف المشاهدة.

قالت:

- كلام شعراء.

أخرجت ورقة وقلما. وسألتها عن رقم التليفون. ورقم صندوق البريد. والفاكس والتليفون المحمول. الذي يسمونه في هذه البلاد النقال.

رفضت أن تعطيني أي رقم من هذه الأرقام.

سألتها:

- وهل هي سر من الأسرار الحربية؟!

قالت لي:

- كلها وسائل اتصال بطيئة.

تساءلت:

- وماذا كان يمكن القول عن الحمام الزاجل. لو أننا عشنا في زمانه؟

قالت بحسم:

- أنا أحيا في زماني.

تساءلت:

- وما عيب التليفون والفاكس؟!

قالت:

- الفاكس فضائحي. يجعل ما بيننا قصة حب معلنة والتليفون يبرد من التهاب المشاعر.

استرحت قليلا:

- الرسائل تصون الأسرار.

قالت وهي تمط شفتيها:

- ولكن البطء قتال.

شرحت وهي منفعلة. تصوَّر كتابة رسالة. ووضعها في مظروف. والبحث عن العنوان. الذي يمكن أن يكون قد فقد. وكتابة العنوان عليه. ثم الذهاب إلى مكتب البريد العادي.

قاطعتها:

- أو السريع.

قالت بيأس:

- كله سيان.

أكملت شرحها. الأجمل هو البريد العادي. ولكنه أيضا من نوع الحمام الزاجل. ولكن جمال البريد العادي أن تسلم خطاب عادي. مسألة سهلة في بلادنا.

- هناك المسجل المضمون.

قالت: إن إجراءاته صعبة ومعقدة. يذهب موظف البريد إلى الصندوق الخاص بها. يترك إيصالا. يفيد بوصول الخطاب. وتأخذ هذا الإيصال. وتذهب إلى مكتب البريد في مواعيد العمل الرسمية حتى تتسلمه على أن يكون معها الإيصال. وأن تقوم باستلام الخطاب في فترة محددة. وإن لم يحدث هذا. يعاد الخطاب إلى الراسل.

سألتها:

- والبريد السريع؟!

قالت:

- إجراءاته أكثر تعقيدا.

قلت لها:

- والحل؟!

سرحت واستفاضت في سرحانها. هي لا تريد سوى أن تقبض على اللحظات الجميلة وهي في ذروة توهجها. لا تحب هذه المشاعر المعلبة. ولا الأحاسيس المؤطرة في كلمات. عندما يقول الإنسان أنا أحب، ويكتب هذا. فهذا معناه أنه يملأ فراغ مشاعره بالكلمات. إمّا أن نحيا الحياة، أو نتكلم عنها.

قالت: أحب هذا الألق الجميل. وأكره البطء الذي يحول الرسالة إلى ثلاجة تحفظ المشاعر أطول فترة ممكنة. بعيدا عن التحلل والفساد.

عدت أقول، متسائلا:

- والحل؟!

قالت بتحديد حسدتها عليه:

- إما أن تبقى معي. أو أن أذهب معك إلى حيث أنت مسافر خلال ساعة.

صمتت فترة من الوقت، وقالت:

- أن نكون معاً. تلك هي المسألة.

استغرقت وقتا، وأنا أشرح لها. استحالة أن أترك بلدي. التزامات. وظروف صعبة. بلدي هي البحر، وأنا مثل السمك. إن خرجت منه. فقدت مبرر وجودي - ربما الوحيد - في الحياة. كنت أتصور أن الأمر قد يستغرق الكثير من الوقت. ولكنها قالت:

- إذن أذهب معك.

قلت متسائلا:

- بعد ساعة؟!

قالت:

- في أقل من ذلك.

وقبل أن أعلق. قالت بحسم:

- إلى اللقاء في المطار. هل نسيت أن الطائرة ليلا؟

عدت إلى الفندق. وأنا أتصور أن هذه الإنسانة النادرة. تضحك عليَّ. هل معها تذكرة طيران؟ وهل رتبت أمورها على هذا السفر المفاجئ؟ حتى لو كان موعد إقلاع الطائرة في المساء؟ فنحن الآن في الحادية عشرة والنصف صباحاً. والدوام في هذه البلاد لا يمتد إلى أبعد من الثانية عشرة والنصف. أو الواحدة على أكثر تقدير.

شعرت أنني جئت إلى الدنيا من أجل أن أحب هذه الإنسانة المعجونة بماء المغامرة ونيران معانقة المستحيل. وإنها خير رفيق، لابد منه، للسنوات الأخيرة من العمر. قبل الغروب القادم. الذي يجب عليَّ الاستعداد له.

في المطار فوجئت بوجودها. كانت هناك قبلي. تحمل حقيبة صغيرة. لا يوجد معها سواها. كأنها خلقت من أجل السفر. سندبادة صغيرة. كل ما تفعله هذه الإنسانة جميل وعذب ومحبب. أنهت إجراءاتها قبلي. أليست من أهل البلد وأنا غريب؟ رغم أني ضيف وهناك من يوجد معي في المطار. من أجل إنهاء إجراءاتي.

في الطائرة جاء مقعدها بجوار مقعدي مباشرة. وكان مقعدي بجوار النافذة. فتعجبت من قدرتها الخارقة على فعل كل هذه المستحيلات. طول عمري. كان عليَّ القيام بكل المطلوب مني. ومن

الآخرين أحيانا. الآن. أحمد الله أنني وجدت هذه الإنسانة القادرة على الاعتماد على نفسها. وربما اعتمدت عليها مستقبلا.

عندما دخلت الطائرة أجواء بلدي. أخرجت جواز سفرها وقدمته لي في صمت. كان الصمت هو سيد الموقف. كنت مبهورا. نفسي مكروش. ولساني تاه مني. وهي كانت سرحانة مع أجواء مغامرتها الجميلة. أخذت مني جواز سفري الذي كان في يدي. بحركة عادية. فتحته. قلبت صفحاته. قلت لنفسي. لابد وأنها تبحث عن تاريخ ميلادي. هكذا هن النساء دائما وأبدا. نظرت في وجهها. قلت لنفسي لابد وأنها تكبرني في العمر. من هذه الناحية أنا مطمئن تماما.

فوجئت، وكم من المفاجآت التي فوجئت بها. بثورتها. رمت جوازي. ومدت يدها. وخطفت جوازها مني.

سألتني بحدة:

- متزوج؟!

تضاحكت ببلاهة، ولم أرد.

أردفت السؤال بسؤال:

- وعندك أولاد؟!

بحثت عن لساني فلم أجده:

- ولد وبنت؟

رمت لي جواز سفري. بدون كلمة واحدة. كنت أريد أن أقول لها ما طرأ على الذهن المتعب. أن معها ولد وبنت وأنا أيضا. ولكني أمام حدتها البركانية فضلت الصمت. تصورت أن الأمر لن يستغرق وقتا طويلا. امرأة مثل كل النساء. تثور فجأة. وتصفو أيضا بنفس الفجائية.

كل المشاكل التي تصادفني أتركها لتحل نفسها بنفسها بعيدا عني.

سبقتني في النزول. سمعتها تتكلم عن العودة إلى بلدها. في أول رحلة. وأنها جاءت إلى هنا كنوع من الخطأ. كانت تقول انها ستنتظر هنا في الترانزيت حتى موعد إقلاع الطائرة المتجهة إلى بلدها.

قالوا إن الطائرة التي جاءت بنا هي التي ستعود بها. وأن الأمر قد لا يستغرق أكثر من ساعتين. حاولت الاقتراب منها. نفرت مني وابتعدت. وكلما حاولت الاقتراب وأنا مصاب بالذهول. كانت تمعن في البعاد.

كنت أريد أن أقول لها. إنها لم تسألني. في بداية البدايات إن كنت متزوجاً أم لا. وأنا - بالتالي - لم أكذب عليها. وإنها هي التي اختارت الدخول في التجربة دون معرفة حقيقة وضعي. كان الأمر أقرب إلى التحدي.

حتى هذا. لم أتمكن من قوله لها..

جـــــاري

.. لم يخلف موعده معي أبداً. سواء في السـابعة صباحـا، أو فـي الخامسة بعد الظهر. تضبط عليه الساعة مثل قطارات السكة الحديد أيام زمان. أسكن في الدور الثالث. وهو يعيش في فيلا من دور واحد. أقف في شرفة بيتي. وأنظر إلى تحت فـأراه أسفلي مباشرة. فشرفتي العلوية. وفراندته الأرضية تطلان على شارع بحري واحد.

فـي الصبـاح يحضـر أشـياءه من الداخـل، كومـة مـن الصحـف والمجلات. وفي وسطها بعض الكتب. يضعها علـى منضدة صغيرة، يخرجها مـن مجموعـة مناضد مركبـة فـوق بعضهـا، الكبيرة بداخلهـا الصغيرة. والصغيرة في قلبها الأصغر. وهكذا. ويدخل لكي يعود ومعه الكنكة الصغيرة الخاصـة بـالقهوة وفنجـان صغير. وفـي المـرة الثالثـة يدخل ويخرج ومعه دورق فيه مياه مثلجة. أعرف ذلك من الغبش الذي يحيط بزجاجه الخارجي. لا تتغير مكعبات الثلـج – من حيث الكميـة – حتى وإن كنا في عز الشتاء.

يضعها – القهوة والميـاه – علـى منضـدة ثابتـة. وفـي المـرة الرابعـة والأخيرة. يحضـر غليونـه وعلبـة التبـغ والكـبريت والنظـارة وراديـو صغير. يضعها جميعها علـى المنضدة الثالثـة. أمـا المنضـدة الرابعة والأخيرة. فيفرد عليها قدميه.

أول ما يفعله هو فتح الراديو. والمحطة مضبوطه سلفا، ولا يغيرها أبداً. إنها محطة البرنامج والموسيقى الذي تنساب أنغامه في هدوء ونعومة. كأنها موسيقى لا يعرف الإنسان مصدرها. ولا يجب أن يحاول المعرفة. لأنها قد تفسد المتعة التي يوفرها سماع تلك الأصوات العذبة التي تبدو مثل خرير المياه.

بعد أن يجلس يبدأ بالصحف اليومية. تقع عيناه أولاً على صفحة الوفيات. ومع الموتى. يبدو أن الأمر يتعدى مجرد العلم والمعرفة. ثمة متابعة دقيقة. يحرك يديه في الهواء. تتحرك شفتاه ولا أسمع ما يقوله. هل يقوم بعمل حصر شامل للأنساب والعلاقات. كان والدي - يرحمه الله - يقول لي، إن الخريطة التي تقدمها هذه الصفحة. أكثر دقة وصدقا من أي مصدر آخر، لدفتر أحوال الناس.

يبدأ الجريدة من الخلف. ويصل إلى صفحتها الأولى في النهاية، عندما يكون قد فقد اهتمامه بإكمالها. بعد الجرائد يأتي دور المجلات. وعندها تطول وقفته أكثر من الجرائد. ويختم حصة القراءة بالكتب. طوال الساعتين لا يكون لي من دور سوى مراقبته. ولكني كنت أرفض أن يكون دوري هو المتابعة والمراقبة من بعيد فقط.

حاولت أن أفعل مثله. واجهت مشكلة إحضار الصحف والمجلات كل صباح. جلبها لي البواب بزيادة في الأسعار، ثم بدأ يحضرها لي. أما الكتب فقد كانت موجودة. لم أكن من عشاق القهوة ولكني أحببتها. الإنسان هو أكبر كائن قادر على التعود. والبرنامج الموسيقي كنت أهوى سماعه من قبل أحياناً.

كانت اللعبة جميلة. في اليوم الأول واليوم الثاني واليوم الثالث.

ولكني اكتشفت أنني مثل طالبة بليدة. تذاكر دروسا لا تحبها. تفعل كل هذا، دون رغبة آتية من الأعماق. ولكن مشكلتي أنني طوال عمري سريعة الملل. خاصة من حكاية القراءة هذه. والكتب التي تركها لي المرحوم والدي سواء ما كان يقرؤها. أو الكتب القليلة التي ألفها في سنوات عمره الأخيرة ونشرها على حسابه الخاص. لم أكن أحب قضاء وقت طويل معها. كل ما أستطيعه دقائق وينتهي الأمر.

أما هو، فقد كان عندما يجلس في الشرفة. لم يكن يفعل سوى القراءة أو التأمل. الكتب مخلوقات صوفية بالنسبة له. والقراءة حالة من الوجد والتأمل. سباحة في الملكوت. هذا ما كان يفعله في كل مرة.

أضبط عليه الساعة من جديد. مع أنه لم يكن ينظر فيها أبداً. يبدو أن هذا الإنسان جاء إلى العالم وثمة ساعة مثبتة في رأسه. ساعة غير مرئية، لا يراها حتى هو. كل شيء يحدث وأنا هنا أنظر إليه. هبات الرياح الأولى التي تجعل الجازورين والسرو يتصارعان في حديقته. قطرات المطر الكبير. المطر الأول. وحتى صوت المطر المرتحل.

كان يحيا حياة من ابتكاره الخاص. حتى حدودها هو الذي رسمها. كان يقرأ ببطء. كان يراقب الأحرف والكلمات والفواصل وعلامات الترقيم. كان يرفع بصره عن الصفحة كثيراً، استراحة؟! التقاط أنفاس؟! محاولة لإعادة خلق ما قرأه بداخله؟! يحدق في الفضاء الذي أمامه. ولكنه يحاول أن يصغي بأذنيه للطيور. التي يكون صوتها الصباحي أهم الأصوات. يمد يده اليمنى. يحيط بها أذنه اليمنى. محاولا تصيد الصوت الذي يبدأ في الابتعاد تدريجيا.

يجلس وأجلس. أراقبه، أتابعه، أوشك أن أحصي عليه أنفاسه. أفكر. متى بدأ هذا الأمر بالنسبة لي؟ متى وأين وكيف أطل هذا الرجل في حياتي؟ واحتل هذه المساحة الكبيرة؟! ربما تم هذا بعد موت أبي. والصدمة الضخمة التي خلفها لي رحيله.

كنت قد بدأت التعود على الحياة وحيدة. وأبي ليس معي. رغم أنه قضى سنوات عمره الأخيرة لا يغادر فراشه. ولكنه كان نفساً يتردد في الشقة الواسعة. التي زاد اتساعها بعد موته. ومهما توقعنا بعض الأمور. فإنها عندما تأتي. يكون لها وقع المفاجأة.

رحيل أبي أورثني تلك العادة التي كانت جديدة عليَّ. التأمل وإطالة التفكير والسرحان. وشرفة بيتي كانت أنسب مكان لممارسة هذه العادة. كنت أقف فيها كثيراً. ولأن الشرفة لم تكن مغطاة. مثل كل شرفات أيامنا التي جرى تقفيلها. كنوع من الانصياع لعادة جديدة. فقد كنت أفضل الوقوف في الشرفة في أنسب وقتين كل يوم. والوقوف تحول إلى جلوس. لأن الوقت طال. والوقتان هما: الصباح والغروب. بداية النهار ونهايته. ميلاده وموته.

في إحدى المرات. نزلت عيني إلى أسفل. فاكتشفت المنظر الذي ربما شاهدته من قبل آلاف المرات. دون أن أتوقف أمامه. كان جالسا. سألت نفسي على الفور: وهل مات له قريب أو حبيب أو ونيس؟! من الصعب أن يكون الذي مات له هو والده. وإن كنت لم أتمكن من التوصل إلى معرفة سنه الحقيقي أبداً. لكنه من المؤكد أكبر مني.

كان بلا عمر. تنزل عليه شلالات الضوء من أعلى. وتنزل معها عيناي حتى تصل إليه. وجه قشدي وسط إطار من الخضرة. الألوان

التي حوله طبيعية. الأزرق خارج لتوه من البحار البعيدة. الأخضر، قطعة انتزعت من زراعة الأرياف. الأبيض، قشدة حقيقية صادقة. والأصفر جاء من رمال الصحراء نفسها. هذا ما يحدث في النهار عندما أشاهده ليلا. عند آخر النهار ومقدمات الليل خلال جلسته الليلية. فإن الوجه يبدو مضاءاً.

مات أبي الحقيقي. وها هو أبي الروحي يظهر لي في الوقت المناسب. علي أن أحاول الضحك. أي أب هذا؟ لقد بدأت أربط بينه وبين كل الأشياء الجميلة في حياتي. وأصبح كل الرجال بالنسبة لي هم هذا الإنسان الذي لا أعرف حتى اسمه. كنت أسأل نفسي: هل شعر بي ذات يوم؟! لم يكن من عادته النظر إلى فوق. أمي - يرحمها الله - كانت تقول: إن النظر إلى أعلى يكسر الرقبة. من المؤكد أنه لا يخاف على رقبته من الكسر. إنه لا ينظر إلى فوق. ما دام أمام عينيه ما يمكنه النظر إليه طوال وقته.

عندما كانت تنتهي جلسة الصباح. كان ينقل الأشياء إلى الداخل. يبدأ بالصحف والكتب والمجلات في الرحلة الأولى. لم يكن يمكث بالداخل طويلا. لابد وأنه يضع ما معه في مكان قريب. ربما كانت الغرفة المتصلة بالفراندا مباشرة. لو أنه يفتح نافذة هذه الغرفة. لرأيت أين يذهب بعد دخول الفيلا. يعود ليأخذ مستلزمات القهوة والمياه. والكبريت. وفي المرة الرابعة يحمل الراديو والغليون وعلبة التبغ والنظارة. وفي المرة الأخيرة. لا يتبقى سوى المقاعد والمناضد.

كنت أحب فيه هذه الهمة. ولكن ماذا وراءه لكي يفعله سوى هذا العمل البسيط؟ عندما اكتشفت - بعد هذا - أنه يكرر ما يقوم به وقت

الغروب. انتصرت لكسلي الجميل وتساءلت: لماذا لا يتركها كما هي في نفس المكان؟ إلى أن يحل وقت جلسة المساء؟! التي تمتد من الخامسة حتى الثامنة؟ ثلاث ساعات صباحاً. وثلاث أخريات في المساء. ست ساعات كل أربع وعشرين ساعة. التغيير الوحيد كان يتم عند الانتقال من الصيف إلى الشتاء. مع تأخير وتقديم الساعة. كأنه لا يجلس جلسة حرة. كما لو كان يقوم بعمل أو يؤدي وظيفة.

في المساء لم يكن يشرب سوى الشاي مع الماء المثلج ويدخن الغليون. ولا يقرأ أي صحف. هل لأن الظلام ينزل أثناء جلوسه؟ ثمة ضوء خافت يأتي من ورائه بمجرد رحيل النهار. ولكنه لا يصلح للقراءة. أقول لنفسي: ما دام هناك نور خافت. إذن يمكن تقويته. ما المانع من هذا؟ عندما سأتكلم معه. سأقول له هذا. ثم إنه يوجد في العالم اختراع اسمه الاباجورات. ربما تكون هديتي الأولى له أباجورة يستخدمها في قراءات الليل في الشرفة.

هذا الضوء الخافت سببه الخوف من الناموس الذي يملأ المنطقة ليلاً. مع أن الزراعات بعيدة عنا. ولا توجد حولنا برك مياه ولا مستنقعات ولا مصارف لمخلفات المدينة. مثلما يوجد في الأحياء الشعبية الفقيرة. فقد كان حيّنا من الأحياء الفاخرة ولا فخر.

يجلس في المساء. بعد أن يشرب الشاي من ترمس كبير في وقت طويل. يأخذ رشفات صغيرة جداً ويتذوقها ببطء وهدوء قبل أن يبتلعها. ثم يغلق عينيه ويبدأ في الاستماع لنشرات الأخبار. لم تكن تصلني الكلمات ولكني كنت أعرفها من الموسيقى المميزة والمصاحبة لكل نشرة أخبار على حده.

كان يمد يده أحيانا من أجل تغيير المحطة واستبدالها بأخرى. سمعت أن هناك بعض الأجهزة المبرمجة التي تغير قنواتها من تلقاء نفسها. الراديو الذي أمامه شكله قديم. لابد وأن هذا الإنسان قد قطع صلته بالدنيا. لا يعرف الجديد الذي فيها. وهذا هو دوري القادم في حياته. سأكون همزة الوصل بين عالمه القديم. ودنيانا الجديدة بكل ما فيها. وسيكون الراديو المبرمج هديتي الأولى له بدلا من الأباجورة.

كنت قد تأكدت بصورة نهائية. لا تقبل الشك أن هذا الإنسان وحيد مثلي. لقد دفعتني الوحدة إلى الحالة التي كنت أضبط نفسي فيها أكلم نفسي. وأختلف مع نفسي وأتعارك مع نفسي وأكذب على نفسي. وهو يتكلم مع الأوراق ويختلف مع الأوراق ويتعارك مع الأوراق ويكذب على الأوراق.

وهكذا أشرقت الفكرة في ذهني. لماذا لا يكون هو لي وأنا له. وحيد ووحيدة. في هذا العالم المليء بالصخب والجنون؟ ولكن من الذي يأخذ الخطوة الأولى. لماذا لا يكون هو؟! من قال إن المرأة يجب أن تبادر. وإنها هي التي يجب أن تطلب؟

قرأت مرة في إحدى الصحف. مقالا يقول كاتبه فيه إن الفارق بين فوزي وفوزية في مجتمعنا. أن فوزي عندما يقرر الزواج. يخرج من بيته. ويطلب من قد تحبها نفسه ويتزوجها وقت أن يشاء. وفي المكان الذي يختار وبالطريقة المناسبة له. ولكن عندما تقرر فوزية الزواج فكل ما يمكنها القيام به هو الانتظار. انتظار أن يأتي الرجل الذي يمنحها هذه الفرصة. أن يتزوجها. وبالتالي، يقول كاتب المقال - وهو رجل بالمناسبة - من الخطأ القول إنّ فوزية تقرر الزواج. ولكن

الدقة اللغوية تجعلنا نقول إنّ فوزيــة تتمنــى الـزواج أو تحلـم بـالزواج. وهذا أقصى ما يمكن قوله عن فوزية.

لو انتظرت هذا الرجل. لمضى العمـر دون أن يحدث شـيء. هـذا الإنسان صنع سجنه الخاص. ودخله بقدميه. وسعد بالبقاء فيـه. سـجن من الهواء. سجن حدوده هي حدود هذا الأفـق. سجن باتسـاع الأرض والسماء. ولكنه يبقى سجنا على أية حال. لو أن هذا السجن صنعه لــه الآخرون. لكان قـد حـاول الخـروج منـه. أو الهـرب مـن بيـن جدرانـه. كنوع من التحدي لهؤلاء السجانين. ولكن ما هو الحـل. وهـو السـجين والسجان. وباني السجن وواضع لوائحه؟

عليَّ أن أتحرك أنا. أن أفعل ما لن يقوم بـه هـذا الإنسـان. مـادام هنا رجل بالقرب مني. ومادمت أسعى إليه. حتى وإن كان لا يشعر بـي أو بوجودي. إنــه مـادة خـام جميلـة. هـذا هـو الرجـل الأجمـل فـي هـذا العالم. ولكن لابد من الاستعداد له. إنـه وحيـد والوحـدة تـورث الخجـل. وما دمت قد قررت أن آخذ زمام المبادأة. فسأجعل هذا الخجل كأنــه لـم يكن. هل في هذا العالم ما هو أفضل من رجل خجول؟!

وهكذا وجدت ما يشغلني عن وحدتي وينسيني رحيل أبي. وهجرة أهلي لي. وبعدهم عني. أصبـح عنـدي موعـدان معـه. وبعـد أن أتركـه سيبدأ هو في الحضور إليّ. ويعيش معي أسعد لحظات عمـره وعمـري معا. أوقات من الصعب وصفها. لم يكـن يقلـل مـن إحساسـي بالسـعادة معه سوى شـعور نــاتج عـن أننــي لا أذهـب إليـه. لا يستدعيني مثلمـا أستحضره إليَّ. وقد يكون السبب في ذلك. أنه لم يشعر بوجودي. وهذا لابد من القيام به.

السعال بصوت عال لم تكن له نتيجة. إحداث أصوات غريبة لم يوصلني إليه. لابد من خطوة جريئة. إما عن طريق المراسيل. البواب أو الجنايني. أو أن أذهب إليه مباشرة، أطرق بابه. أحطم قلاعه وأهدم حصونه. أنهي مقاومته السلبية لأي حضور للآخرين في حياته. أفرض نفسي عليه. أدخل دنياه التي لن أخرج منها أبدا.

لست أدري - للمرة الثانية - كيف تم هذا؟ كيف أصبح هذا الرجل الذي لم أتبادل معه كلمة واحدة هو كل حياتي؟ ورغم فشلي في معرفة أي شيء عنه. إلا أن الاستمرار في هذه اللعبة. كان الممكن الوحيد أمامي. كنت متأكدة من أمر واحد. أنه وحيد مثلي. بل ربما كان أكثر وحدة مني. ومع تقدم الأيام وكر الليالي. لم أر معه أحدا سوى الجنايني الذي يرعى حديقة الفيلا ونباتاتها وزهورها. يأتي مرتين في الأسبوع. الجمعة والأحد. والخادمة التي تحضر مع الجنايني. ويبدو أنها زوجته. أو هكذا خيل إليَّ. تغسل له ملابسه. لأن الغسيل ينشر يومي السبت والاثنين فقط. ولكن في أيام الشتاء. يختفي الغسيل من فوق المنشر. يبدو أن عنده منشراً داخلياً ينشر عليه. خوفا من غياب شمس الشتاء العليلة، واحتمال سقوط الأمطار.

الملابس المنشورة حتى تجف. كانت تقول لي إنها ملابسه وحده. دون سواه. أعترف أنني رأيت ملابسه الداخلية بهذه الطريقة الغريبة وغير الطبيعية. كان ما ينشر كله عبارة عن ملابس يتم ارتداؤها في المنزل. جلاليب، بيجامات. وأرواب. وملابس داخلية. وقمصان وبنطلونات. تلك التي يرتديها لحظة جلوسه في الشرفة. ولا شيء أكثر من هذا.

من هذا الإنسان؟ بدأ السؤال يدق كل لحظة من حياتي دون أن أجد له إجابة. هل هو سياسي مطارد؟ إرهابي سابق من إرهابيً هذه الأيام؟ حلق لحيته وابتعد عن الدنيا؟ رجل خانته امرأة فقرر أن يعتزل العالم؟ لا يبدو عليه أي ملامح من تلك.

وبعد انتهاء جلسة المساء في الشرفة. ينتقل إلى إحدى الغرف الداخلية. يمتد سهره إلى لحظة انتصاف الليل. أعرف هذا من الضوء المنبعث من الغرفة. وأعرف أنه نام عندما تنطفئ الأنوار. لابد وأن وراء هذا الرجل حكاية ولا حكايات ألف ليلة وليلة. وسأعرفها عندما يبدأ نهر الكلام في التدفق بيني وبينه.

من الصعب القول إنني أعرفه. لو قابلته في الشارع ما تعرفت عليه. لابد من شراء نظارة معظمة. أنظر إليه من خلالها. حتى يرتبط شكله في خيالي. بكل المعاني التي تدور حوله. سأشتري المنظار وأضبطه على رؤيته خاصة في جلسة الصباح.

نزلت من بيتي. وحالة من الحبور تملأ جوانحي. وقلبي يرفرف بسعادة لم أعرفها من قبل. تجولت وسألت. واكتشفت أن ما أبحث عنه قليل الوجود. عندما كنت أسأل عن المنظار. كان الناس ينظرون إليَّ بدهشة. قال لي بائع: عندك أطفال قد يستخدمونه؟ اعتبرت أن ذلك بشرة خير. هززت رأسي موافقة. عدت وقلت: إنهم بعد الطفولة وقبل الصبا. نظر إليَّ وقال: ولكنك أصغر من هذا. مضيت في الكذبة حتى آخرها. قلت له: إنني تزوجت في الثانية عشرة من عمري. ارتفعت حاجباه من الدهشة. دلني على مكان أجد فيه مثل هذه النظارات. وقال لي إنني يمكنني العودة إليه إن لم أجد النظارة عند المحل الذي وصفه

لي وهو سيوفرها لي.

هناك وجدتها. أجبت عن الأسئلة الكثيرة. التي وجهها لـي البـائع الآخر. هل سيستخدم في الصحاري أم في المدن؟ قلت فـي الحـي الـذي أسكن فيه. مجال الرؤيا ومدى اتساعه. والمسافة والهدف الذي أبحث عنه. هل هو ثابت أم متحرك. مبنى أو إنسان أو سيارة؟ استغربت من كل هذه الأسئلة. قال لـي إن كل نظارة لها استخدام معين. خفت أن يطلب مني الحصول على تصريح من القسم أو أن يرسل معي مندوبا من القسم لكي يدربني على استخدامها.

كان السعر مرتفعاً. وكان المنظار كبيراً. ومعه أوراق تشرح طريقة الاستخدام. وقدمه لي البائع عندما أدرك أنني لا أريد الخوض في مثل هذه الأمور. خاصة أنني رفضت تحديد الهدف الذي أشتري المنظار من أجل رؤيته. وهل هذا كلام يمكن قوله؟!

عدت إلى البيت وأنا مجهدة ومتعبة من الرحله. لدرجة أنني لم أخرج إلى الشرفة في المساء لأول مرة. لأنه مادام هناك لقاء جديد في الصباح. ومن خلال وسيلة مبتكرة. ستجعله معي هنا. من الأفضل الابتعاد حتى يوحشني.

نمت وأنا سعيدة بإحساس أن الغد يحمل معه موعداً غرامياً. سأرى المحبوب. كأنني أشاهده لأول مرة في العمر كله. قلت له: تصبح على خير يا... حتى اسمه لا أعرفه. ستبدأ الأمور بعد مشاهدتي له عن قرب. لأن التعارف الحقيقي هو ما سيجري في الغد.

ولكن هذا الصباح لم يأت أبداً. حدث الزلزال. توقف الزمان. خرجت إلى شرفتي مسلحة بالمنظار. الذي سيوفر لي علاقة جديدة.

ولكني لم أجده. تصورت أن ساعتي خرّفت. عدت إلى ساعات الشقة. كانت كلها تشير إلى السابعة. وأنا من يوم أن أدمنت رؤياه. أضبط المنبه الذي أضعه بجوار سرير نومي على السادسة والنصف صباحًا. نظرت في الساعات الأخرى المتناثرة في الشقة. والتي على الحائط في الصالة. وفوق المكتب. أو في المطبخ. كلها تشير إلى السابعة صباحاً.

إذن هو صباح يوم الهول الأعظم. أخلف موعده معي. مع أنه لم يخلفه من قبل. كان أكثر انضباطاً من حركة الكون. فما الذي جرى؟ وفي اليوم الأول الذي أحمل فيه منظاري الجديد. قلت لنفسي: فرصتي وجاءت إليَّ. أذهب إليه. إلى هناك لمعرفة ما جرى. ولكني ترددت.

أمامي المساء وصباح الغد. أليس من المحتمل أن يكون على سفر؟ ماذا يمنع من سفر مفاجئ؟ أصل المشكلة أنني لم أعمل حساب هذه اللحظة من قبل. وبالتالي لا أعرف كيف أتصرف في مواجهتها.

بدأت رحلت البحث عنه. ولكن بالملاحظة من بعيد. وهل لدي سوى هذا؟ لم يكن من السهل سؤال أحد عنه. فأنا امرأة وحيدة. وهو رجل وحيد. وإن كان السؤال شبه مقبول من جانبه. فإن السؤال لو جاء مني، لفتح أبواباً من المستحيل إغلاقها بعد ذلك. الأسلم هو البحث من بعيد بالمتابعة. أصبحت الفيلا مظلمة كل أوقات الليل والنهار. والجنايني الذي كان يحضر من أجل العناية بالحديقة لم يعد يأتي. وبدأت مظاهر الإهمال تظهر عليها. وبدت كرجل أهمل حلاقة ذقنه أو الاهتمام بشعر رأسه.

بحثت عنه وسط الأشجار في حديقة الفيلا. وبين العشب المجفف. أتجول بنظري ابتداء من الشرفة الجرداء العارية. التي كانت

عامرة به. وفي الفيلا كلها وهي مدفونة فـي الضباب الفجري قبل أن يخرج النهار إلى الوجود. تبدو الفيلا. كما لو كانت مكانا لم يوجد من قبل في أي زمن مضى.

لكنني لم أجده. أوشكت أن أنزل من بيتي. لكي أسأل النـاس عنه في كل مكان. وهل حدث هذا من قبل؟!

إلى أن كان صباح. قررت فيـه أن أفعل مـا كـان يقـوم بـه. ولأن صحف اليوم لم تكن عندي. ولم أرغب في تأجيل الأمر إلى الغد. أخذت صحيفة قديمـة. كـانت عنـدي. بـدأت مـن الصفحـة الأخـيرة. صفحـة الوفيات التي كان يبـدأ بهـا. الصفحـة التـي قـال عنهـا أبـي. إنـهـا أكثر صدقا من كل ما نطالعه في الحياة. وهذا الإنسـان الأقرب إلـى نفسـي. أكد لي هذا المعنى على البعد. مع أنه يسكن المجهول الآن.

سأواصل ما كان يقوم به. حتى يقرر هو العودة إليَّ. ويخرج من الغيـاب الـذي أعرفـه. إلـى الحضـور الـذي ربمـا شكل مفاجـأة لـم أكـن أتوقعها. ولست قادرة على التعامل معها.

نظرت في الصفحة. بدأت من أعلى العمود الـذي ناحيـة الشـمال. خبر وفاة شخص ما. لـم تـزد المعلومـات والبيانـات عـن أربعـة أسطر فقط. شجرة نسب شحيحة لا تقول أي شيء. حتى الآن لا أعرف من أين نبتت هذه الفكرة في خيالي. في اللحظة التي وقع فيها نظري علـى اسمه قلت إنـه هو. في آخر الأسـطر الأربعـة. كـان عنوانـه، الـذي هو عنوان البيت المجاور لبيتنا. اسم الشارع هو هو. والرقم الفردي الـذي يلي رقمنا. وهكذا وصلت إلى ما كنت أحاول الهروب منه. دون السـعي إليه.

كان الاكتشاف مذهلا. خاصة أن تاريخ الجريدة. كان نفس تــاريخ غيابه المفاجئ الذي لم يظهر فيه. ويبدو أنه لن يظهر.

عندما تأكدت أن العنوان المكتوب في صفحة الوفيات هو نفس عنوان الفيلا التي لم أدخلها. وساكنها الوحيد هو معبودي الذي قرأت اسمه لأول مرة في حياتي مسبوقا بكلمة المرحوم. أدركت ما جرى له. لقد مات إذن. مع أنني لم أشاهد جنازة ولا صوانا منصوبا أمام الفيلا ولا معزين ولا أصوات بكاء. لم يتناه إلى سمعي ترتيل لآيات القرآن الكريم.

مات حبيبي إذن وإن كنت لم أعرف بعد كيف يكون التواصل مع الموتى. في تصوري إن ذلك لن يتم إلا بأحد أمرين. إما أن نعيدهم إلى الحياة. ولأن هذا مستحيل. فلا يبقى سوى أن نذهب إليهم. إن امتلكنا القدرة على ذلك.

لقد أحببت رجلاً واحداً في هذا العالم المليء بملايين أو مليارات الرجال..

لكنه مات..

حتى قبل أن يعرف أنني أحبه.

تأجيـــر الأحـــلام

- حسنة لله يا أسيادي
- وصـــل أمـانـــــة
- مسافرة زادها الخيال

حسنة لله يا أسيادي

.. فلما كانوا في الأيام العشرة الأخيرة من شـهر شـعبان. وعلـى أبواب الشهر الكريم، ذلـك أن ليلـة واحـدة منـه خـير مـن ألـف شـهر. وعندما كانت الدنيا كلها تستعد لهذا الشهر الذي يعـد عيداً. يـأتي مـرة واحدة كل سنة. ولابد من انتظـاره مـن العـام وحتـى العـام الـذي يليـه. هبت روائح رمضان. فحملت معها كل ما هو جديد. أخذت معها الجميع في حالة روحانية نـادرة العذوبـة والجمـال. خاصـة فـي الحـي العتيـق. حيث يعلن الشهر الكريم عن نفسه بقوة في الناس والأشياء.

فلمـا كـانوا فـي الأيـام العشـرة الأخـيرة مـن شـهر شعبان طرقـت صفاء القلوب – وهل للأسماء ثمن؟! وهل عليها ضريبة أو جمـرك أو حتـى رسـوم استعمال؟! – طرقـت صفـاء القلـوب بـــاب بيـت جارتهـا سلسبيل. وقالت إنها ضيف عزم نفسه لكي يشرب معها كوب شاي فـي ساعة روقان بال. بعيدا عن مشاكل الربع وهموم سكانه.

استغربت سلسبيل طلب صفاء القلوب. ولكنها كتمت دهشـتها فـي حبة قلبها. ولم تملك سوى الترحيب بها. وإن كانت قد اشترطت عليها. أن تحضر هي – أي سلسبيل – الشاي. وأن على جارتها وصديقتها – أي صفاء القلوب – السكر. أما المـاء ووابـور الجـاز فأمرهمـا مقـدور عليه. حتى تعدان معاً زردة الشاي المعتبرة. فـي سـاعة مغربيـة. قـرر

الخالق سبحانه وتعالى أن تخلو من أي نحس.

كان الهواء في الغرفة الوحيدة التي تعيش فيها صفاء القلوب مع زوجها العليل، وابنيها وبناتها الثلاث راكداً. لم تفتح الشباك الصغير الوحيد في الجدار الخلفي للغرفة. ذلك أن فتح الشباك يجرح الغرفة. ويجعل العيون المتطفلة ترى ما بداخل الغرفة. كما لو كانت جزءا من الشارع نفسه. والباب لابد وأن يبقى مغلقا طوال النهار. لأنه إن كان الشباك يجرح جزءا من الغرفة. فإن الباب يجرح الغرفة كلها. وإن كان الذين ينظرون من الشباك هم الغرباء. فإن الذين يجرحون الغرفة من الباب هم الجيران. والغريب يأتي ويمضي. ولكن الجار باق.

كان حال سلسبيل جزءا من حال صفاء القلوب. فالغرفة واحدة والأولاد كوم من اللحم. جاؤوا فوق رؤوس بعضهم. لم يكبر أحد منهم بعد. لقد خلَّفت من زوجها أكبر عدد من الأولاد . ليس من أجل العزوة. ولا حبا في الخلفة. ولا حتى من أجل أن يحملوا اسم عائلة الأب. الذي لا عائلة له. ولكن ليساعدوا على المعايش. أكثر ما كان يضايقها هو بطء كبر الأولاد. كانت توشك أن تقيس أطوالهم كل صباح. تستعجل لحظة انطلاقهم إلى العمل.

الفارق الوحيد بين حال المرأتين - صفاء القلوب وسلسبيل - أن زوج سلسبيل عليل. لم يعرفوا له مرضا. ينام كل الوقت. يصحو من نوم. لكي يستعد لنوم جديد. وبين النومين يستريح من تعب النوم. أو يحاول أن يستريح.

ورغم العلة. كان له فم يدخل فيه الطعام. وفتحتا أنفيه يستنشقان الهواء. ويذهب إلى دورة المياه في الصباح والمساء. ويتردد على

الحمام كل ساعتين، وهو لا شغله ولا مشغله. وجوده مثل عدمه. رجل والسلام. تقول سلسبيل «ضل راجل ولا ضل حيطه». هي تعرف أن الأعمار بيد أبو خيمة زرقاء. وإن كان زوجها يقضي أياما والسلام. فمن يدري. قد يعيش حتى يدفنها بيديه.

أما زوج صفاء القلوب. ومتى عرفت القلوب الصفاء؟! يمسكان الخشب قبل الكلام عنه. سبع صنائع في اليد. وإن كان البخت لم يضع بعد. توضح صفاء القلوب لسلسبيل في جلسة الصفاء النادرة هذه الأمور. تقول لها إن البخت مائل. فالرجل عرفت قدماه الطريق إلى بعض الغرز في الحصة الأخيرة. إنه كسيب. يداه تلفان في الحرير. وهي لم تقل غير هذا. ولكن الرجال أنواع.

نوع من الرجال يصل ما يكسبه إلى بيته مباشرة. ونوع ثان يبعثر رزقه. قبل أن يصل إلى أهل بيته. ومن يريد أن يفعل هذا. سيجد أبوابا للإنفاق أكثر ألف مرة من أبواب الرزق. وزوجها من هذا النوع الثاني. ماذا ستفعل؟! نصيبها ولا بد أن ترضى به. وإن ناقشته في الأمر. هاج وماج. يقول لها: إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعطي. وإنه جلَت حكمته هو الذي يجعله ينفق ما حصل عليه. قبل الوصول إلى بيته. هل نفعل - نحن البني آدميين - شيئا؟ إننا مجرد أدوات. في هذا العالم.

كانت سلسبيل تعد الشاي. وعقلها يذهب إلى آخر الدنيا. ويعود إلى حيث يجلسان. في أمر واحد حيرها طويلا. ألا وهو ما السبب الذي جعل صفاء القلوب تفتح قلبها لها هكذا فجأة. وبدون مقدمات. لم يكن بينهما قبل ذلك ولا حتى كلمة «صباح الخير» أو «مساء الخير».

صحيح أنهما لم يتشاحنا ولم يتعاركا من قبل. رغم كثرة المشاحنات التي تعد غذاء كل يوم. في زمن عزت فيه الأقوات. ولكن أيضا، كانت تلك هي جلستهما الأولى. وربما كانت الأخيرة. ولكن يبقى السؤال حول السبب في هذه الزيارة يطن في دماغ سلسبيل مثل الدبور الذي يزن حتى لو كان هذا الزن على خراب عشه. قالت سلسبيل لنفسها والماء يوش وشيش ما قبل الغليان «يا خبر بفلوس». وإن كانت لم تكمل المثل.

مع الرشفة الأولى من كوب الشاي. وصوت الشفطة العالي. ومصمصة الشفاه. وبعد أن أثنت صفاء القلوب على صنعة سلسبيل للشاي. وأمسكت بيدها وقالت: دول من دهب.

لم يكن أحد من سكان الربع قد تعود على كل هذه العواطف التي طرطشت هذا المساء. حتى فاضت عن الكيل. وكانت الطرطشة بالصدفة. وقد قلقت سلسبيل من كل هذا الوداد. الذي لم يحدث من جيرانها من قبل. والذين كانت تتعامل معهم كما لو كانوا عقارب. لابد من الابتعاد عنهم.

أحست سلسبيل أن قلبها يؤلمها من كل هذا التحنان. الذي لم يحدث لها من قبل. سواء من أهل أسرتها أو من جيرانها. وكانت تريد أن تعرف ما وراءه. أوشكت أن تفسد الجو المعطر بدون عطر. وتسأل صفاء القلوب ما هي الحكاية بالضبط. وترجوها أن تبدأ من الآخر. لأن هذا أفضل لكليهما معاً.

أوشكا أن يصلا إلى تفل الشاي. الذي يرقد في قاع الكوبين. دون أن تتكلم صفاء القلوب عن الحكاية وسلسبيل لم تسأل. ليس من الذوق

أن تسأل جارتها عن السبب في إنسانيتها. الطبيعي أن تكون إنسانة. وغير الطبيعي أن تتنكر لهذه الإنسانة. فكيف تسأل إنسانا عن السبب في إنسانيته؟!

صفاء القلوب وهي تتصنع. تحاول أن تبدو كما لو كانت تتأهب للانصراف. وفجأة. قالت كمن تذكرت أمراً منسيا لعدم أهميته بالنسبة لها. قالت وهي تضرب جبهتها بيدها اليمنى. التي كان من المفروض أن تسلم بها على سلسبيل. وقالت: «فكرتيني».

لم تنطق سلسبيل. أكملت صفاء القلوب. التي كان عمرها يقارب عمر سلسبيل. هكذا بالتخمين. فمن يعرف عمره في هذه الأجزاء من الدنيا؟ قالت صفاء القلوب: هو المحروس ابنك وده - كان اسمه الأصلي. عبد الودود - ربنا يصونه ويحرسه ويحميه. مسك شغل؟!

أي شغل يمسكه طفل لم يصل إلى سن المدارس بعد؟ تعرف سلسبيل ذلك. ليس لأنها كانت تنوي إرساله إلى المدرسة. ولكن حتى تعد نفسها لتهريبه من المدرسة. ومن وجع الدماغ الذي سيحدث له بسبب هذه الحكاية. وتوفر مصاريف التعليم. فما يطلبه البيت. يحرم على المدرسة.

هل وقعت الوليه في غرام الولد؟! أم ماذا؟! قالت سلسبيل لها بجفاء وخشونة لأول مرة. منذ بدء هذه الأمسية التي كانت جميلة:

- لأ.

- أصل جوزي.

وبدأت صفاء القلوب تحكي أن زوجها. يرغب في أن يؤجر الولد وده منها. لكي يعمل معه. وطلب منها أن تتفق مع أمه. على الحكاية

والرواية. لأن الاتفاق أولا. أفضل ألف مرة مـن الخـلاف فـي الأواخـر. حتى لا يتفرج عليهـم سكان الربـع. الذيـن لـم تبـق فـي حيـاتهم سـوى الفرجة على الآخرين. وإن لـم يوجـد هـؤلاء الآخـرون. فهـم يتفرجـون على أنفسهم.

– ووده يشتغل إيه مع جوزك؟!

تساءلت سلسبيل، وهي غير مصدقـة. إن الولـد المفعوص يمكـن أن يساعدها على المعايش. دون أن يدري. طلبت سلسبيل من نفسـها. قليلا من الصبر. ربما كان وراء هذه المرأة مصلحة ما.

قالت صفاء القلوب. إن زوجها. مع أيام الشهر الكريم المفتـرج. أوشكت أن تردد الجملة التي حفظتها من كثرة سماعها من المسـاجد «أعاده الله باليمن والبركـات» ولكنهـا خـافت أن تخطـئ فـي الجملـة. فربما كتب عليها هذا الخطأ في سماء الله العالية.

حكت أن زوجها ينوي أن يغيِّر من عمله الحالي. الذي لـم تحـدده في كلامها. ينوي زوجها أن يحترف التسول. فالتسول فـي هـذه الأيـام عائده يدير الرءوس. الأيام المبروكة هي موسـمه. مبـالغ مـن الصعـب عدها.

تساءلت سلسبيل:

– وهو ينفع؟!

ردت عليها صفاء القلوب:

– لأه.

لماذا تتسرع سلسبيل؟! لو صبر القاتل على المقتول كان قد مـات من نفسه. ولو صبرت سلسبيل على صفاء القلوب لعرفت الحكاية كلهـا

دون أن تسأل. إن زوج صفـاء القلـوب يريـد أن يؤجـر بعـض الأطفـال لكـي يشـغلهم. والـرزق يقسـم بـالعدل. ولكـن بعـد أن يقسـم بـه مـوزع الأرزاق. هل يتكلمان عن رزق لم يحضر بعد؟! ألا يهـرب الـرزق مـن ناس تتخانق عليه؟!

– ووده يشحت؟!

تساءلت سلسبيل. ولكن السؤال لم يكـن موجهـا لصفـاء القلـوب. كان السؤال لنفسـها. وإن كـانت صفـاء القلـوب قـد ردت عليهـا بكلمـة واحدة:

– يتعلم.

سرح ذهن سلسبيل إلى تكاليف العلام التي لا يقدرون عليها. ألـم تكن المدارس أولى؟ أوضحت لـها صفاء القلوب. إن العلام سيكون هنا. وأشارت إلى غرفتها.

تساءلت سلسبيل:

– درس خصوصي؟!

قالت صفاء القلوب:

– لا درس ولا غيره. ولا يحزنون.

أكملت أن زوجها سيعلم المحـروس كيـف يسـتخرج الفلـوس مـن قلوب النـاس.

سألتها سلسبيل:

– زوجك أنت؟!

ردت عليها:

– نعم.

اتفقتا. وبعد الاتفاق سألت صفاء القلوب سلسبيل إن كانت ستأخذ رأي زوجها في هذا الموضوع. فقالت لها إنه ترك لها الجمل بما حمل. فلم تأخذ رأيه؟. وسلسبيل حركت أصابعها. وتساءلت عن الفلوس. فطلبت منها صفاء القلوب نسيان هذا الأمر حتى تأتي هذه الفلوس أولا، ثم يتكلمون عن تقسيمها بعد ذلك. خاصة أن هناك شركاء آخرون.

تساءلت سلسبيل والدهشة تلتهم وجهها:

– شركاء؟!

شرحت لها صفاء القلوب. الذي سيعلم المحروس التسول. ومن سيحدد المكان الذي سيقف فيه المحروس في ميدان رئيسة الديوان. شيء لله يا أم هاشم. السيدة زينب رضي الله عنها وأرضاها. والعسكري الواقف في الميدان حتى لا يأخذ الولد وده تحري إلى القسم الذي يطل على الميدان.

– ومواعيد الشغل؟!

تساءلت صفاء القلوب.

قالت لها سلسبيل، فترتان. الأولى من بعد صلاة الظهر حتى ما بعد مدفع الإفطار. والثانية من بعد صلاة العشاء حتى ما بعد صلاة الفجر.

– ياه!

شهقت سلسبيل. وقت طويل على رجل كبير. فما بالك بالولد الصغير. الولد سيعمل أربعة وعشرين ساعة في الأربعة وعشرين ساعة. وهل سيقدر؟ ويتحمل؟ الولد عوده طري. ولم يصلب حيله بعد.

طمأنتها. هذه المواعيد في الشهر الفضيل فقط. وإن نجحت التجربة. وكان الربح مجزيا. سيكون هناك نظام آخر ومواعيد جديدة بعد الشهر الكريم.

سيبدأ العلام من الغد. ونتوكل على الله. سألت صفاء القلوب سلسبيل عن المحروس وده. فقالت إنه يلعب في الميدان. لأن الحارة التي يوجد فيها الربع بلا مكان للعب. ولا حتى للجلوس. أو مجرد المشي فيها. قالت لها إن الشغلانة الجديدة ستكون مثل اللعب. سألتها: هل صوته جميل؟!

ردت عليها:

- كروان.

تعبت عند القيام من مكانها. فقد كانتا تجلسان على الأرض. متربعتين. أخذت صفاء القلوب باقي الشاي الذي كانت قد أحضرته معها. ذلك أنها ستعمل شايا لزوجها عند عودته إلى البيت وهي تخبره بنجاحها في المهمة التي كلفها بها. وإلا كانت قد تركت الشاي عند سلسبيل. فهي تستحق كل خير.

تركتها بالعافية. وقالت لها:

- تصبحي على خير.

وعند السلام عليها عانقتها. وشمت سلسبيل في شفتي صفاء القلوب مشروع صدق. لم تحسه عند بداية اللقاء ولامت نفسها على سوء ظنها.

مشت صفاء القلوب متثاقلة. كانت عظام جسمها تطقطق. توقفت فجأة. وعادت كمن نسيت شيئا هاما. قالت لسلسبيل انها نسيت أن

تحسب في قسمة الرزق الذي سيأتي من عند الله. نصيب الدكتور.

تساءلت سلسبيل:

– دكتور؟!

قالت صفاء القلوب ببساطة. إن الشحاته صنعة صعبة. ولابد لها من إعداد خاص. لايقدر عليه سوى الدكتور. وطلبت صفاء القلوب من سلسبيل أن تدعو الله لحظة أذان الفجر هذه الليلة. أن يقبل الدكتور الولد وده ويجري له اللازم حتى يعده للشغلانه الجديدة.

لم تحدد صفاء القلوب اللازم الذي لابد وأن يعمله الدكتور للولد وده. وسلسبيل لم تتساءل عن اللازم الذي تكلمت عنه صفاء القلوب. وان كانت لم تنتظر حتى لحظة أذان الفجر. فقد تصادف انصراف صفاء القلوب مع صوت أذان يأتي من مسجد رئيسة الديوان. لم تعرف سلسبيل إن كان أذان المغرب أو العشاء. فقد أخذها الكلام. ولم تفطن لمرور الوقت. وهكذا دعت لابنها المحروس وده. أن يضع في وجهه القبول. عند الدكتور الذي لم تعرف ما هي علاقة الدكتور الذي يعالج الأمراض بحكاية الإعداد للشحاته والتدريب عليها.

نظرت في إثر صفاء القلوب. تساءلت: لم جاءت إليها؟! هل هي الوحيدة التي عندها أولاد. ذلك أن الخلفة في البيوت أكثر من الهم على القلب. تذكرت في هذه اللحظة فقط. أن صفاء القلوب وزوجها قد حرما من نعمة الخلفة. وربما كان هذا سبب النكد اليومي الذي كانا يعيشان فيه. قالت لنفسها كل واحد يحسد الآخر. صفاء القلوب

تحسدها على الخلفـة. وهـي كـانت تحسد صفـاء القلـوب علـى العيشـة وحدانيه مع زوجها. كانت تقول: بزوره وزورها. لاهـم يؤرقهمـا أبـدا. أقل القليل يكفيهما. ما من أحد سعيد بحاله..

عـادت تفكر وهـي حـيرى فـي حكايـة الدكتـور وعلاقتــه بحكايــة الشحاته. ولكن جاءها الأمل في الفلوس القادمة. فاستبشرت خيرا. لعل وعسى..

وصل أمانـه

.. ما إن خرط خراط البنات ابنته. حتى تحولت حياتـه إلـى جحيم اسمه الخوف عليها. زاد الجحيم عندما ودعت المدرسة الثانوية. ودخلت الجامعة. وكان الجديد أن تذهب إلى الجامعة من الثامنة صباحاً. وتعود منها في الخامسة مساء. أما المفهوم الجديد في ذهن ابنته. فقد كانت تلخصه في كلمة واحدة: الحرية. وهي بذلك تقصد الحرية الشخصية المطلقة.

كان يقلق كثيراً من هذه المواعيد الثابتة. يحاول أن يقرأ ما وراءها من دلالات. أن يصل إلى ما ترمز إليه أو ما توحي به. ويرفض تصديق الإشارات المزعجة. ويبحث عن طمأنينة مستحيلة. أما ابنته التي يعيش معها بمفرده. بعد أن مات شقيقها الأكبر. وكان طالبا جامعيا في حادث مؤلم. مازال يطارده في الصحو ويظهر له في النوم. ثم ماتت أمها بعده بسنة واحدة كما لو كانت قد لحقت به هناك. أو ربما بسبب حزنها عليه. أو عجزها عن مواصلة الحياة بدونه. فما دام لم يبق معها هنا. فقد ذهبت إليه حيث هو.

لحظة تركها المنزل صباحاً. كانت هي نفسها لحظة تركه هو أيضا البيت. تذهب هي إلى كليتها. ويروح هو إلى عمله. كان يعرض عليها الذهاب معها. خاصة في أيامها الأولى بالجامعة. فترفض.

تصرخ وتصيح. تضرب قدميها في الأرض. وتلوح بيديها فـي الهـواء. وتقول إنها لم تعـد تلميذة. إنـها الآن طالبـة جامعيـة. كـانت تخـرج لـه كارنيـه الكليـة بعد أن حصلت عليـه. وفرحتـها بـه. كـانت أكـبر مـن سعادتها عندما استخرجت أول بطاقة شخصية لـهـا. تظل ترفـض. إلـى أن يتراجع عن فكرته. وإن كان يسأل نفسـه فـي كـل مـرة: هل تشـعر البنـت بـالخجل منـه؟ هل تجاوزت المرحلـة التـي كـانت فيـهـا البنـت المطيعة؟ دون أن يدري هو بهذا التغيير الذي تم دون أن يلاحظـه؟ كـم فاته أن يلاحظ الكثير مما جرى لابنته.

منذ رحيل زوجته. وهو يحاول أن يكون لابنتها أبا وأما في وقـت واحد. لم يفكر في الاقتران بامرأة أخرى. قال إنه لن يحضر لـها زوجـة أب. مهما كانت الظروف. فـي المدرسـة كـانت الأمـور مقدوراً عليـها. كانت المدرسة قريبة من البيـت. وكـان ينـزل معـها صباحـاً. فـي نفـس الموعد. في الثامنة صباحاً. يوصلـهـا إلـى بـاب المدرسـة. وفـي الظـهر يحرص على أن يكون في البيت، قبل وصولـها. بعد أن رفضت البنـت هديل. بشكل قاطع أن يكون والدها فـي انتظارهـا علـى بـاب المدرسـة. فالثانوية العامة في نظرها هي مرحلة النضج واكتمال العقل.

أما في الأصيل والمغـرب والأماسـي. فلـم يكـن يخـرج فيـها أبـداً. يحضر المدرسون الذين يعطونها الدروس الخصوصيـة. كـان يعـد لـهـم الشاي أو القهـوة أو العصـائر التـي يطلبونـهـا بنفسـه. ويـلـزق لـهـا مـع المدرس في الصالة. حيـث يجلـس لا شـغله ولا مشـغله إلـى أن ينتـهي الدرس.

كانت تنفخ بغيظ قائلة: «ممل». وكان يتصنع عـدم الاسـتماع. أو

عدم الإدراك. إن بدا عليه أن سمع ما قالتــه. ولكنــه ظل مصمما علــى ذلك. أخضع تليفوناتهـا لرقابــة صارمــة. ضبطتــه أكثر من مـرة يرفـع السماعة الأخرى. يتصنت على ما تقوله. وكانت تتخانق معه. تعكر من صوتها صائحة: ضـع السماعة يا عبد الشكور. كـانت تناديـه باسمه مباشرة. بعد أن تسقط كلمـة بابا التـي كـانت أمها تحـرص علــى أن تقولها له. ومن باب الاحترام أولا. وحتى تسعد زوجهـا ثانيا، باعتبار أنه ما من أب في العالم. إلا ويسعده سماع هذه الكلمة من ابنته.

ولأنه هو الذي كان يتولى الغسيل والمكوى. فقد لاحظت هديل أنه يفتش ملابسها بعناية. استغربت ذلك. ناقشت أباها. قال لها إن كل ما يفعله هو من باب الاطمئنان عليها، لا أكثر ولا أقل. وإن هذا من حقه، بل من واجبه. ولابد من القيام بـه. لأن أولاد الحـرام لـم يتركوا لأولاد الحلال شيئا. في هذه الأيام.

عندما كانت تعود من الجامعة فـي الخامسـة مسـاء. كـان يسألها عن أي شـيء. وفـي كـل شـيء. مـا مـن أمـر فـي يومهـا إلا ويخضـع لأسئلة منـه. ليس عن الزميلات والزمــلاء. ولكــن عــن الموظفيــن والسعاة. بعد أن يكون قـد شـبع مـن الكـلام عـن الأسـاتذة الكبـار والمعيدين. وعندما يصل إلى هؤلاء المعيدين الصغار. كـانت مخاوفه تصل إلى الذروة. فهو – أي المعيد – يجلس على مقعـد مرب فـاضل. يتنكر في اسمه. وإن كان لا يمت له بأي صلــة؟ ذئـب فـي ثيـاب حمـل. هكذا كانت حملته على المعيديـن الصغـار. ومـن كـثرة هجومـه عليهـم. كانت قد بدأت الاهتمام بهم. لأن الأمر كان فيه قدر من الإثارة لها.

لم تكن الكلية بعيدة عـن البيـت. كـانت فـي الحـي المجـاور للحـي

الذي يعيشون فيه. عرض عليها - مجددا - أن يوصلها إلى الكلية في الذهاب والعودة فرفضت. فكر في تأجير تاكسي فثارت. سأل إن كانت هناك سيارات في الكلية توصل الطالبات. فقالت: لا. لم يكن هناك مفر من تركها. هي التي طلبت ذلك. وألحت عليه. واعتبرت أن التعامل مع الحياة وجها لوجه. بعيدا عن وصايته جامعة أخرى. لا تقل عن الجامعة التي ستمنحها الشهادة. إن لم تزد عليها.

عندما كانت تضطر لركوب التاكسي في العودة إلى البيت. حتى تكون في المنزل قبل الخامسة مساء. لا تتأخر عنها. خاصة في الشتاء. حيث تصبح الخامسة هي أول الليل. وما أدراك ما الليل. إن جاء وهي مازالت في الخارج. كان يصاب بحالة من الفزع. ويبدأ في الكلام عن المخاطر التي كان يمكن أن تحدث لها بسبب هذا التهور والعودة بالتاكسي. يبدأ الأسئلة التي لا نهاية لها. هل كان التاكسي قديما؟ أم حديثا؟ هل جلست بجوار السائق؟ أم في المقعد الخلفي؟ إنه يلاحظ أن كل السائقين - في هذه الأيام - يفتحون الباب الأمامي. كنوع من استدراج الزبونة - خاصة إن كانت جميلة - هل كان هناك ركاب آخرون؟

من الأفضل لها عدم ركوب التاكسي أساسا. وإن كان لابد من ركوب تاكسي. فالأحسن أن تركب تاكسيا خاليا. مربط الفرس في كل هذا الكلام. كان السؤال الجوهري: هل عزم سائق التاكسي عليها. أو أحد الركاب الآخرين عليها بشيء. يشرب أو يؤكل. المفروض أن ترفض ذلك بدون مناقشة. وإن راحت نفسها للشيء الذي يعزم عليها به. فليأكل أو يشرب هو منه أولا. ثم تقبل عزومته وذلك بعد أن تمر

فترة ولا تظهر أي أعراض.

تشعر بضيق شديد من كل هذا الجنون الذي يمارسه عليها أبوها. يعود هو إلى البيت في الثانية بعد الظهر. لكنه يتشاغل بإعداد الطعام لها وله. ويتفنن في تهيئة السفرة. وتنظيف الشقة. ويرتب غرفتها. ينشغل في كل هذا حتى تعود. وبعد عودتها. لا يبدأ تناول الطعام. ولكن الذي يبدأ هو نزيف الأسئلة التي بلا نهاية.

هل ذهبت إلى كافيتريا الكلية؟ ومع من؟ وماذا أكلت؟ وماذا شربت؟ ومن الذي دفع الحساب؟ وكم كان معها صباحاً؟ وماذا بقي معها الآن؟ إن قالت أنها لا تتذكر يقوم. يجري إلى حيث حقيبتها. يخرج منها – بعد أن يكون قد فتشها بسرعة – محفظة نقودها. يفرغ كل محتوياتها على السفرة. هدفه ليس النقود فقط. ولكن البحث عن أي أشياء أخرى. ويبدأ عملية أبعد. يمسك بالقلم والورق. ويدون ويحسب.

بعد ذلك تطورت الأحوال. وأصبحت لديه آلة حاسبة. حتى يعرف بسهولة. كم أنفقت في هذا اليوم. تضيق بكل هذا الذي يجرِي. يقول لها إن كل معلومة لها دلالتها الهامة. خاصة بعد أن يدخلها. ويستخرج دلالتها وقت اللزوم. تسأله: هل تستعد لمعركة؟ يهز رأسه علامة نعم. تسأله: أي معركة؟ يقول لها: أقدس المعارك. الحفاظ عليك حتى لحظة وصولك إلى بيت العدل. إلى العريس. كان هذا هو هدف الأهداف في الدنيا كلها. وكثرة إلحاحه عليه جعلها تقول إنها لا تريد الزواج. وإنها ستبقى هنا على قلبه إلى الأبد.

كان يشرح لها. إنه لن يعيش لها في قمقم. وأنه سيموت إن

حاليا أو مستقبلا. تطلب له طول العمر. كان هذا المشهد قابلا للتكرار يوميا. مع بعض التعديلات الطفيفة. ولكن الجوهر يبقى كما هو.

إلى أن كان يوم. قالت له بغموض وهما ينتهيان من الغداء. الوجبة الرئيسية كل يوم. وجبة الساعة الخامسة. قالت: إن هناك زميلا لها. يريد أن يزور والدها في البيت. بعد أن يحدد له موعدا. نفر عرق غليظ في جبهته، نفره رأتها واضحة. سألها: زميل؟ قالت: نعم. سألها ثانيا: زميل من؟ زميلي أنا أم زميلك أنت؟ ضحكت عاليا ببراءة وقالت: زميلي أنا طبعاً.

حاول الخروج سريعا من هذا الموقف الصعب قائلا: فهمت الآن. سألها عنه. رشاش من الأسئلة المتلاحقة التي لا تعطيها حتى فرصة الرد. وهي ردت على كل ما قاله. باستثناء معلومة واحدة. ان الذي يطلب الإذن بالزيارة معيد في كليتها. فهي تعرف موقفه من المعيدين عموما. تلك قضية مفروغ منها. ولا أمل في العودة إليها. راوغها. قال إنه مشغول في الأيام القادمة وإن كانت تدرك أنه ليس مشغولا ولا يحزنون. كان يتهرب من اللقاء. من الصعب القول أنه يتهيب. فالذي كان متهيبا كان معيدها. الذي اشترطت عليه قبل أن تخرج معه. وتذهب إلى بيته. أو أن يحضر هو إلى بيتها أن يطلب يدها. وتقول إنه زميل في الكلية. وعندما يعرف والدها الحقيقة فيما بعد. تقول له إنه عين مدرساً مباشرة. ولأنه كان متفوقا ونابغة. فلم يمر بمرحلة المعيد هذه. فقد كانت بين والدها. وبين الكلمة - كلمة معيد - عداوة قديمة.

أخيراً تمكنت من الحصول على نصف موعد من والدها. قال لها وهو يحدده. إنه لقاء سريع عابر يحصل منه فيه على بياناته. من أجل

أن يبدأ السؤال عنه. هديل ليست ابنته فقط. ولكنها كل حياته. ولا يمكن أن يترك أي شيء في حياتها للصدفة.

جاء هادي إلى البيت ذات مساء. جاء طبيعيا وكان ودوداً. حاولت هي أن تخفي حجم معرفتها به. وأن تتعامل معه كما لو كانت لا تعرفه. وأبوها عامله بجفاء وربما قسوة في النصف الأول من الزيارة. تصنع مشاهدة برنامج هام جدا كان يعرض في التليفزيون. انصرف بكل وجدانه إلى المشاهدة. تحول إلى عينين تشاهدان التليفزيون. مع أنه كان يسخر كثيرا من مدمني مشاهدة التليفزيون. وكان يصفهم بصفات كثيرة غير حسنة. تصل إلى حد الشتيمة أحيانا.

هذه المرة، ولأول مرة في حياته. لم تستطع هديل الكلام معه. كان يهشها. ويلوِّح لها بيده. حتى لا تتكلم معه. لأن الكلام قد يفسد متعة المشاهدة. لم ينظر ناحية العريس. لم يتفحصه. ولم يوجه له آلاف الأسئلة الصغيرة. حتى يحتفظ بإجاباتها في كمبيوتر عقله. ويحاول أن يستخرج الدلالات منها بعد ذلك. وهي التي كانت قد أعدت له ما يمكن أن يفعله أبوها معه. حتى يكون مستعداً ولا يفاجأ بأي أمر من الأمور.

ورغم أنه هو الذي حدد موعد الزيارة. واشترط أنه لن يدخل في قلب أي قضية من القضايا. واحترمت هي رغبته. والتزم خطيبها بما تم الاتفاق عليه. وجاء موافقا بالثلاثة. إلا أنها فوجئت في النصف الثاني من الزيارة بوالدها يصبح إنسانا آخر. أغلق التليفزيون بقرف. متأففا من الذين يقضون نصف أعمارهم أمامه. قال: تفاهة. أردف: سطحية.

فوجئت هديل. وفوجـئ هـادي. فعبـد الشـكور يرتـدي وجهـا آخـر وهو يهش ويبش في وجهه. ويتكلم كثيرا. رغم أنه قـال لـهديل عندمـا حدد الموعد إنه سيستمع أكثر مما يتكلم. اعتبـارات الكرامـة هـي التـي تفرض عليه هذا. فهو مشتر وليس بائعا في مثل هذا اللقاء.

تحدث عن هديل وتعبه في تربيتها. حتى تصل إلى شاطئ الأمـان في بيت عريسها. تنحنحت هديل محاولـة أن تذكـر أباهـا أن فـي ذلـك خروجا على النص. وهادي لم يتكلم. لم يطلب أي شيء. هكـذا أفهمتـه هديل أن الأمر لن يخرج عن كونه مجرد لقاء تعارف لا أكثر، ولا أقـل. ولكن والدها حول الأمر إلى اتجاه آخر عندما فوجـئ الزائـر. وفوجئـت هديل بوالدها يقول للزائر. إنّه لن يتنازل عن أمرين لا ثالث لهما.

الأول: أن هديل - حتى بعد الزواج - لابـد وأن تعيـش معـه هنـا في البيت. بدأ يتكلم عن أزمة المساكن واسـتحالة الحصـول علـى شـقة بالنسبة لتلميذين مثلهما. لابد وأن والـد الفتـى - قـال هذا وهـو يشـير إليه - هو الذي ينفق عليه. كما أنه هو الذي ينفق عليهـا - قـال هـذا وأشار إلى هديل. وهـادي حـرك رأسـه دلالـة الموافقـة علـى أن الكـلام الذي يسمعه سليم تماما. بدا وجه الزائـر مسـتريحا ولكـن هديـل كـانت مذعورة.

والأمر الثاني يا عمي؟! توقف الرجل. تفرس في وجهيهما لبعض الوقت. لمعت عينـاه. وبـدا فيهمـا بريـق تـراه هديـل لأول مـــرة. قــام وأحضر ورقة. كانت مكتوبة وجاهزة. قدمها للزائر. كــانت عبـارة عن وصل أمانـة. موقـع عليـه باسـتلام هديـل. يكـون مسـؤولا عنهـا. فـــي الذهاب والعودة. ووقـت البقـاء فـي الكليـة. كـل لحظـة تقضيهـا خـارج

البيت. تكون تحت مسؤوليته التامة من جميع النواحي. وهـذا الإيصـال سيصبح لاغيا بمجرد كتب الكتاب. كأنه لم يكن.

بحث الزائر في جيوبه عـن قلـم. ولـم يكـن معـه. ألـم تطلـب منـه التجرد مـن كـل مـا يمكـن أن يوحـي أنــه معيد فـي الكليـة؟ والقلـم أول الأشياء التي تخلص منها قبل الحضور. طلب من عمه قلما لكـي يوقـع به. وفي هذه الأثناء كانت هديل قد أغمـي عليها مـن هـول هـذا الـذي يجري أمامها.

أسرع الزائر إلــى المطبـخ يحضـر قليـلا مـن الميـاه. لـولا الحيـاء لاندفع إلى غرفتها يحضر كولونيا. وهو يعرف كل شبر في هذه الشـقة من كلامها معـه. أمـا عبـد الشـكور فكـان قـد بـدأ كلامـا لا ينتهـي عـن ضرورة الحفاظ على شرف البنت في هذه الأيام العصيبة.

و.........

مسافرة زادها الخيال

كان المنظر مثيراً. أمام صالة المسافرين بمطار القاهرة الدولـي. والذي كان مصدر الإثارة ليست أناقـة الرجـل. ولا صغر سـن الطفلـة. ولكن جمال المرأة الخارق. لدرجة أن الذين شاهدوا المنظـر تصـوروا أن الست خواجايه مـن بلاد الثلـج والضبـاب. فيهـا كـل مواصفـات الخواجايات. الشعر أكثر اصفراراً من حقول القمـح وقت الحصـاد. والعينان في خضرة غيطان البرسيم في أيام الربيع. والجلد فـي بيـاض القشدة. يكاد أن يبك منه الدم.

هكذا قال سائق من سائقي سيارات الأجرة. الـذي يبـدو أنـه جـاء من الأرياف. سائق آخر من أولاد البندر أكد لـه. أن المـرأة الخواجايـه ليست رفيعة مسلوعة. كما أنها لا تعد من حزب شجر الجميز من نساء مصر اللاتي يملأن الشـوارع الآن. منظرهـا رشيق ورفيـع. إن نظـرت إليها من بعيد. ولكن من يقترب منها. ويدقق النظر فيها. عن قرب لابد وأن يكتشـف أنـهـا مدكوكـة بـاللحم. أي أن جلدهـا ليـس تحـت عظمهـا. وأحد حملة الحقائب الذي اقترب من المرأة. عاد وقال إنـها تتكلم مثلنـا. لسـانـها بربنـد. ولا التـي جـاءت مـن حـواري بـاب الشـعريه. فاحتـاروا جميعا.

عـلاوة علـى جمالـها الأخـاذ. كـان هنـاك سـبب آخـر للنظـر إليـهـا

والاهتمام به. إن أكثر من طائرة أقلعت. وأكثر من طائرة هبطت. وأكثر من طائرة وصلت إلى المطار ترانزيت جاءت من مطارات أخرى. وفـي طريقها إلى مطارات أخرى. ومـع ذلك لـم يتحـرك الثلاثـي مـن مكانـه. فضلا عن أنها كانت تتكلم مع بعض الركاب المسافرين. ولما كـان مـن الصعب تصور أنها - أي المرأة الجميلة. أو ملكة الجمال كما قال عنها بعض السائقين - متسولة. تقول حسنة لله يا أسيادي. فلا بد وأن فـي الأمر شيئا ما.

الرجل الذي كان معها. كان أميز ما فيه أنه أطول رجل شـاهدوه. مع أن كل خلق الله يمرون من هنـا. آلاف بـل ملايين تعبر مـن هـذا المكـان. كـان طويـلا. مـن يشـاهده يسـأل نفسـه: كيـف سـيجلس هـذا الإنسان في مقعد الطائرة؟ خاصة وأن شركات الطيران في هذه الأيـام. تضيق المسافات بين الكراسي. وتصغر من حجم الكرسي. حتى تستفيد بالمساحة أكبر استفادة ممكنة.

والذي كان يتأمل طوله أكثر. كـان يصل فـي تسـاؤله إلـى حكايـة كيف ينام هذا الإنسـان فـي السرير. لابـد وأن عنـده سريرا مـن حجـم معين سـرير تفصيـل. سـرير عمولـة. حتـى ينـاسب طولـه. أمـا المـرأة الخواجايـه. فقـد كـانت متوسـطة الطـول. ولكنـهـا بجـواره كـانت تبـدو قصيرة. كان طوله يظهر قصرها. وكان قصرهـا يبرز طولـه. وبينـهمـا كانت ثمة طفلة تمشي بصعوبة أخذت مـن المـرأة جمالـها الـذي يتعب العين. ومن الرجل طوله الشاهق. مثل عمارات تلك الأيـام. التـي تبـدو الشقة فيها مثل علبة الكبريت.

وهنـا ضـرب النـاس كفـا بكـف. هـل معنـى هـذا. أن الرجـل زوج

المرأة؟ مستحيل؟ غير معقول؟ إن كانت المرأة شديدة الجمال. تذكر من ينظر إليها باللوحات التي يرسمها الفنانون. ويزين بها الناس صالونات بيوتهم. فإن الرجل لم يكن جميلا بأي حال. وهل مطلوب من الرجل أن يكون جميلا؟! سأل سائق. ورد عليه العسكري الذي كان ينظم وقوف السيارات ويمنع من أن يركنها أصحابها أمام باب صالة السفر. قال: المطلوب فقط من الرجل أن يكون رجلا. نظروا إلى وجهه وأدركوا لمَ يقول هذا الكلام.

كانت الطفلة تلهو على الرصيف. الذي يؤدي إلى باب صالة المغادرة. وهي لا تدري ماذا يجري حولها. وكان الرجل الطويل. الذي يلفت طوله النظر إليه. يقف. يبدو أنه لا علاقة له بما يجري. أما المرأة الخواجايه فقد كانت تتصيد المسافرين من الرجال. على أن يكونوا بمفردهم. ليست معهم عائلات أو حتى رفاق سفر. وتقترب من الواحد منهم. تسبقها ابتسامتها العذبة. التي تزيد جمالها جمالا. وعطرها الذي لا يقاوم ولا حل له. وتظل تقترب حتى تكاد شفتاها تلامسان أذنه. وتهمس له بكلام وهي تشير إلى الطفلة. وبعد جزء من الثانية. وحتى يستوعب ما يقال له. من هذه المرأة. يهز رأسه علامة الرفض أو الاعتذار. يضرب السائقون والحمالون والعساكر كفوفا بأكف. من الذي يجرؤ على أن يرفض طلبا لهذه الفاتنة. أيا كان هذا الطلب؟

الذين يشاهدون الموقف من بعيد يتساءلون: ماذا تطلب هذه المرأة الأنيقة من المسافر، خاصة إن كان رجلا وكان وحيدا؟ ولماذا لم تقترب من امرأة على سفر. أو من أسرة مسافرة؟!

كان كل الداخلين - في هذا الوقت بالذات - مسافرين إلى جنيف. يركبون طائرة تملكها شركة أجنبية. لا يركبها سوى الأجانب أو المتفرنجين من أبناء البلد. أو الذين يحبون الفشخرة الكذابة. يركبون مثل هذه الطائرات مع أن فارق ثمن التذكرة. يكاد أن يصل إلى ضعف ثمن تذكرة الشركة الوطنية. والفارق - من ناحية أخرى - لا يتساوى مع وهم الراحة الذي تعلنه مثل هذه الشركات. وهي راحة غير حقيقية في معظم الأحيان.

تساءل العسكري. الذي أهمل عمله من أجل ملاحظة ومتابعة هذا الذي يجري أمامه. إن كانت هذه المرأة تعرض الطفلة للبيع للمسافرين؟ وعندما رفض أكثر من سائق قبول هذه الفكرة. وكانت عندهم المبررات لذلك. فالمرأة شكلها لا يقول أنها يمكن أن تقدم على هذا التصرف. إنها يمكنها شراء المطار بما فيه لو أرادت. ما فيه من الطائرات وما حوله من السيارات وما بينهما من الموظفين بكل أنواعهم والمسافرين والواصلين من السفر بكافة جنسياتهم. الذي يبيع هذه الطفلة. يكون قد وصل إلى الحافة الأخرى لليأس. إلى ما بعد الفقر. لا يجد ما يلبسه ولا ما يأكله. أما هذه المرأة. انظر إلى قناطير الذهب التي فوق صدرها. وتلك التي تتدلى من أذنيها. وهذه التي تزين معصمها. إن هذا الذهب. إن كان ذهبا فقط. وإن كان يبدو أن فيه الكثير من المجوهرات الثمينة. وحتى إن كان ذهبا فقط. فإنه يشتري القاهرة بكل من فيها من الناس. فكيف تبيع ابنتها. إن كانت هذه الطفلة ابنتها فعلا.

أما النطع الذي يقف في أقرب مكان منها. وإن كان لم يتبادل

كلمة واحدة معها. منذ أن وقف. كان في أقرب مكان منها. وكان في أبعد موقع في نفس الوقت. يبدو كمن يتابع جزءا من المشهد. وإن كان يحاول أن يبدو بعيدا عنه.

لابد وأن في الأمور أمور. ولابد وأن وراء هذا المشهد حكايات. وهكذا أمسك فضول نادر بنفوس الواقفين. أمام صالة السفر. لأن وجودهم هنا كل يوم. جعلهم ينظرون حتى للأمور الغريبة. على أنها من الأشياء التي تحدث كل يوم.

حمَّال الحقائب الذي كان يجري على السيارة التي تقف من أجل حمل الحقائب. بعد أن نافسته في عمله في الأيام الأخيرة. تلك العربات التي يؤجرها المطار للركاب لكي يضعوا حقائبهم عليها بإيجار رمزي قدره جنيهان. ورغم أن الحمَّال كان يحصل على أقل القليل. وعمره ما حصل على الجنيهين من راكب. إلا أن هذه العربات الحديد سرقت منه رزقه. ومن يومها وهو بلا عمل. بل إنه بدأ يدرب نفسه على تنظيف السيارات واشترى فوطه صفراء وبدأ يعد نفسه لممارسة هذا العمل الجديد. بعد أن وقف حاله.

شيال الحقائب وحمال الهموم. قال لهم. إنه سيحاول معرفة هذا الذي يجري. ربما كان في الأمر حكاية. ذهب لكي يبلغ ضابط المباحث. حتى يتركه يقف هناك على راحته. ثم يبلغه بما يعرفه. فقد أصبح يخاف على وجوده بعد اختراع عربات الحديد تلك.

أصبح رزق في أقرب مكان للرجل الطويل. الذي كان ينظر إلى السماء. ملابسه كانت على سنجة عشرة. وفي يده ساعة من الذهب الخالص. والمرأة كانت تقف بالقرب منه. «لا يعرف رزق ما هي

علاقة الرجل والمرأة بكـل هـذا الذهـب؟» كـانت عينـا المـرأة مركزتيـن على المكان الذي تقف فيه السيارات التي يصل بها المسافرون.

كان وقت إقلاع الطائرة المسافرة إلى جنيف قد أزف. وهو الوقت الذي يصل فيه عادة المسافرون المهمون. الذيـن يضبطـون مواعيدهـم بالدقيقـة والثانيـة وعـادة مـا ينتظرهـم فـــي المطـــار. مـــن ينهـــي لهـم الإجراءات في غمضة عيـن أو أقـل. كـان العد التنـازلي لموعـد إقـلاع الطائرة قد بدأ. والذين يحضرون من المسافرين في هذا الوقت يجـرون إلى البوابة مباشرة.

نزل من سيارة فـاخرة راكـب وحيـد. لـم يهتـم بحقائبـه. يبـدو أن السائق سيحملها له. بعد أن يركن السـيارة. كـان فـي منتصـف عمـره. ورغم حرارة الجو البادية. كان يضع على يده اليسـرى بـالطو خفيـف. ولأن قماشه كان يلمع. فهو إذن حريف سفر. يعـرف المكـان المسـافر إليـه. ويتوقـع أن فيـه الآن أمطـارا غزيـرة. لذلـك يسـافر مسـلحاً بهـذا البالطو.

ما إن شاهدته المرأة الخواجايه. حتى أشارت إليه والرجل توقـف فورا. واقترب منها. وهي وضعت يدها على يده. وتكلمـت معـه بحنـان غريب. هكذا قالت ملامح وجهها. كانت تشـير إلـى الطفلـة التـي كـانت تلعب بلعبة صغيرة. مع كل كلمة تنطق بهـا. والرجـل نظـر فـي الاتجـاه الذي أشارت إليه أكثر من مرة. كان يسـتمع بأذنيـه وينظـر بعينيـه فـي وقت واحد. وكانت الخواجايه تقدم له بـاليد التـي لا تمسكه بهـا جـواز سفر وهي تشير إلى الطفلة.

والرجل بعد أن استمع إلى كلامها. كلـه. اعتـذر حتـى عـن لمـس

الجواز الذي قدمته له. وكان في منتصف صفحات الجواز تذكرة سفر بالطائرة. يبدو من لونها الخارجي. أنها من الشركة التابعة لها الطائرة التي تستعد للإقلاع.

عاد رزق إلى الجماعة يقول لهم. إن المرأة طلبت من الرجل المسافر أن يأخذ معه الطفلة. لسبب لم يعرفه. ولكن الرجل رفض أو اعتذر أو تخوَّف. الله أعلم. وإن كان من المؤكد أنه لم يوافق على أخذ البنت معه.

تعجب الرجال من هذا الذي يجري. قال واحد منهم إن أحداً لم ير مثل هذا من قبل. معقول أن تطلب المرأة مثل هذا الطلب من مسافر؟ لا. إنه غير معقول بالمرة. لابد وأن رزق أذنه مسدودة منذ أن تأثر رزقه. وأصبح حاله لا يعجب عدوا ولا حبيبا.

ازداد غموض الموقف. وكان لابد من تصرف جريء. وهنا تقدم المخبر السري فولى لكي يمارس عمله. أليس أمام عمل غريب أثار اهتمامه؟ كان لابد وأن يذهب إلى حضرة الضابط في المكتب لكي يبلغه. ويتلقى منه التعليمات.

كان الضابط في المكتب مشغولا بمكالمة تليفونية طويلة. وكان مكتبه مليئا بأهل المسافرين. وأهل العائدين من السفر. ولكل واحد منهم حكاية. وخدمة ومشكلة يريد حلها.

فكر أن يكتب له ورقة يضعها أمام عينيه. ولكنه تراجع. ففي كل مرة يكتب له مثل هذه الورقة. يمسك الضابط بقلمه الأحمر. ويصحح الأخطاء. الصغيرة أو الكبيرة التي يقع فيها المخبر عادة في الكتابة. وأصل المشكلة أن الضابط يعرف أن المخبر لم يتعلم سوى في فصول

محو الأميه. ولذلك يتسلى بهذه الحكاية. عظَّم المخبر الضابط ووقف. بعد مضي بعض الوقت. اعتبر أنه أبلغه وحصل على الإذن منه. ثم عظمه من جديد وانصرف. والضابط كان مشغولا لشوشته. ولم يأخذ باله من حضور المخبر أو من انصرافه. ولم يشغل نفسه بهذه الحكاية.

عاد المخبر إلى الخواجايه والرجل الطويل. والطفلة التي تحبو. وإن كان في طريق عودته قد تمنى لو أنهم انصرفوا وأراح باله من هذه الحكاية. وقعت الفأس في الرأس. ولا يملك الآن سوى التصرف. على الأقل أمام المقاطيع الذين بارت بضاعتهم. لم يعد لهم من عمل سوى متابعة خلق الله. ومن يدريه قد يجد في الأمر شغلانه. تعوضه عن كل ما قام به من قبل بلوشي. وقد يكون في الأمر مكافأة تخرجه من أزمته المالية الدائمة. والتي يعاني منها منذ أن أمسك بهذه الشغلانه التي يحسده الناس عليها.

اقترب من المنظر واحتار مع من يتكلم أولا. الخواجايه أو الولد الصايع. الطويل الهبيل الذي معها. قرر أن يتكلم والسلام. يقف في منتصف المسافة بينهما ويتكلم. تنحنح وقال: أي خدمة؟! الخواجايه هي التي بادرت بسؤاله: من حضرتك؟! قال إنه من قوة أمن المطار. الناس لا تستريح له عندما يقول حكاية أنه مخبر سري. ينفرون منه. ولكن قوة أمن المطار تفتح له الأبواب. وتسهل العمل. وتدفع من يكلمه في بعض الأحيان. لأن يدس في يده مبلغا من المال. يكون كل همه لحظتها هل يشاهد ذلك أحد؟ أم أن الأمر تم في السر؟

أنارت وجهها ابتسامة. من تلك التي كانت تقدمها لمن كانت تتكلم

معهم من المسافرين. وقالت: أنهما – وأشارت إلى الرجل الطويل. أو الولد الصايع كما سماه المخبر فولي، منذ أن شاهده – مصريان. يعيشان في جنيف. وقد حضرا إلى مصر في إجازتهما السنوية. ولكن اتضح لهما. أن تذكرة «نوران» – وأشارت إلى الطفلة، ولأن الاسم كان غريبا على مسمع المخبر – واستفهم منها أكثر من مرة عنه – فقالت له أن الاسم عبارة عن نور ونور. وعندما لم يفهم ما قالته. قالت له: اثنين نور.

قالت إن تذكرتها – أي نوران – تنتهي اليوم. ولابد من سفرها. لأن تجديدها يتطلب مبلغا ماليا كبيرا جدا. ربما لم يكن معهما. سمع هذا المخبر فولي ونظر إلى الذهب الكثير الذي يثقل وزنه عليها. تساءل: ربما كان ذهب فالصو؟ جائز. أوشك أن يعطف عليها. ولكنه تذكر أن العمل عمل. وحضرة الضابط علمه أن كل إنسان متهم حتى يثبت له العكس. حتى لو كان هذا الإنسان ماشيا في حاله فهو متَهم إلى أن يثبت براءته من أي تهمة يمكن أن توجه له.

سألها. وما المانع من سفرها معهما؟ قالت إنّ تذكرتيهما – هي وزوجها – وهنا تأكد المخبر فولي أن هذا النطع يحتكم على هذه النتايه. ورن في خاطره المثل الذي يقول إن أجمل النساء يقعن في أبشع الرجال. قال في عقل باله: طيب. أكدت له هي أن تذكرتيهما. حصلا عليهما بتخفيض كبير. ولا يمكنهما السفر بهما إلا بعد شهر من وصولها إلى مصر.

والحل؟ أن يقبل مسافر أخذ نوران معه. حتى لا ينتهي سريان تذكرتها ويصبح ليس من حقها السفر بها. ويضطران لشراء تذكرة

جديدة لها. سألها: أليس من حق هذه الطفلة شراء نصف تذكرة؟ قالت له: وهل ثمن نصف التذكرة قليل؟ شرحت له أن حكاية النصف تذكرة. عملية ضحك على الذقون. تقوم به شركات الطيران. فالذي يدفع حقيقة حوالي 72% من ثمن التذكرة الأصلي. حتى وإن كان الدفع للنصف فعلا فهو مبلغ كبير. علا صوتها وهي تقول متسائلة: وهل نسيت أنها شركة أوروبية؟ ثمن تذكرتها ضعف ثمن أي تذكرة أخرى؟ سألها: لم لم تعمل واسطة لحل هذه المشكلة؟ قالت له: ياريت. ولكن الأوروبيين لا وساطة عندهم. مرة أخرى: والحل؟ أن تسافر نوران على هذه الطائرة والآن إلى جنيف.

في هذه اللحظة كان ينزل من سيارة تاكسي. الراكب الأخير. قبل إقلاع الطائرة. وكان الإحساس بأنه الراكب الأخير مصدره أن النداء على الطائرة كان قد بدأ. وقف المخبر فولي في طريقه. وتكلمت المرأة. ولأن المسافر كان أكثر من مستعجل. فلم يستمع إلى كل الكلام الذي قالته المرأة الخواجايه. سألها بعجلة عن المطلوب منه. قدمت له جواز سفر نوران وتذكرتها وأشارت للبنت الصغيرة. التي لم تكن تدري ما يدور حولها.

أخذ البنت في يده. واضاف الجواز والتذكرة إلى جوازه وتذكرته. سألها عن حقيبة البنت. قدمت له شنطة صغيرة جدا. أخذها واتجه إلى البوابة. وما هي إلا ثوان معدودات. وغاب داخل المطار والبنت الصغيرة في يده.

نظرت المرأة الخواجايه إلى المخبر تشكره. والمخبر لم يكن ينتظر من المرأة فلوساً. يكفيه القرب من هذه المرأة الجميلة لحد الألم.

ثم إنه كان يفكر فيما سيحكيه لمقاطيع المطار الذين ينتظرون حكايتـه. مع إدراكه أن أقل القليل من الفلوس أفضل من كل حكايات الدنيا.

كانت تتأهب لأن تقول للمخبر إنّها عاجزة عن الشكر. تذكرت فجأة. أنها لم تعط الرجل الذي أخذ نوران ومضى في غمضة غين العنوان الذي سيوصلها إليه. وأنها لم تحصل منه على رقم تليفونه أو عنوانه في جنيف. بل لم تعرف حتى اسمه.

انهارت المرأة. والرجل الذي كان معها. ومن المفترض أنه زوجها. جرى متجها إلى داخل المطار. وخرج منه بعد قليل وهو يضرب كفا بكف. ويقول إن المسافر فص ملح وذاب. والمرأة الخواجايه نظرت من جديد للمخبر فولي متسائلة. ولكنه قال لها إن مهمته قد انتهت عند هذا الحد. وإنه غير مسموح له بدخول المطار. وعمله هنا فقط.

وبعد قليل جرى الإعلان عن إقلاع الطائرة. كان النداء الأخير.

والرجل الذي قالت المرأة الجميلة أنه زوجها. أخذها لكي يمشيا بدلا من الفضيحة. والمرأة رفضت المشي معه. وبدأ كل منهما يرمي التهمة على الآخر ويحمله المسؤولية.

الواقفون - جميعا - بدأوا يضربون كفا بكف..

المحتوى

نهنهه ....

- كشف خصوصي 9
- إعلام وراثة 25
- مسجل وبعلم الوصول 39

الدمعة الأولى ....

- البنت حِزَيِّنة 51
- موعد غرامي 67
- مراسيل 73

مطر الدموع...........

- لام ألف 91
- جاري 109

تأجير الأحلام ....

- حسنة لله يا أسيادي 125
- وصل أمانة 137
- مسافرة زادها الخيال 147